نظرات

في

جوهرة التوحيد

د/ إبراهيم عبد الشافي إبراهيم
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
جامعة الأزهر

(الجزء الثاني)

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٢م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمــد لله رب العــالمين ، والصــلاة والســلام علي المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن اهتدي بهديه إلي يوم الدين وبعد ..

فهــذه نظرات في جوهرة التوحيد ، التي نظمها العلامة الشيخ إبراهيم الــلقانى ــ رحمــه الله ــ وهذه الجوهرة حوت معظم مباحث التوحيد من إلهيات ونبوات وسمعيات .

ومــنذ أن نظمهــا صاحبها والشروح تتوالى عليها نظراً لما حوته من نفائس وذخائر في علم التوحيد ، وهو العلم الذي يبحث فيه عن وجود الله ، ومــا يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه جل شأنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يستحيل في حقهم ، وعن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر ...

وقــد تــناولت جزءاً من هذه الجوهرة بداية من قدم الأسماء والصفات وانــتهاء بمــبحث الرؤية ، وصدرت هذه المباحث بالنص الذي يخصه من نظــم الجوهــرة ثــم اتبعته بتوضيح مبسط ، توخيت فيه سهولة العبارة ، والــبعد عــن الغموض ، ثم عقبت وأدليت برأيي في المباحث التي تشعبت فيها الآراء بغية الوصول إلي القول الفصل ما أمكن .

والله أســأل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يرزقــنا الصدق في القول والإخلاص في العمل " ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير "

د/إبراهيم عبد الشافي إبراهيم

القاهرة في ٩/٢/ ٢٠٠٢م

أسماء الله الحسنى

تمهيد :

أســماء الله ــ عــز وجــل ــ أعــلام عليه ، أخبرنا بها في كتابه ، والرســول ــ صــلي الله عليه وسلم ــ في سنته،وكل اسم من هذه الأسماء يــدل عــلي صفة لله ــ سبحانه ــ ، وكل اسم مشتق من مصدره ، كالعليم والقديــر والســميع والبصير وغيرها ، فالعليم مشتق من العلم ، وهو يدل علي صفة العلم للباري ــ سبحانه ــ وكذلك بقية الأسماء . ١

والاســم الجامع لمعاني الأسماء كلها والصفات كلها هو " الله " وصفات الألوهيــة هي صفات الكمال ، المنزهة عن التشبيه والمثال ، ولهذا يضيف الله ــ تعــالي ــ سائر الأسماء الحسنى إلي هذا الاسم العظيم كقوله تعالي " ولله الأســماء الحســنى " ويقــال : " الرحمن والرحيم ، والقدوس والسلام والعزيــز ، والحكيــم " مــن أســماء الله ، ولا يقال : " الله " من أسماء " الرحمن " ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك [١]

فاسم الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى ، ودال عليها بالإجماع ، وأسماء الله الحسنى تفصيل وتبيين للصفات الإلهية ، التي اشتق منها اسم "الله" .

واسم " الله " دال علي كونه مألوها معبوداً تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضــوعاً ، وفزعاً في النوائب والحاجات ، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمــته ، والمتضمنين لكمال الملك والحمد ، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته ومــلكه مســتلزم لجميع صفات الكمال ، لأنه يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٤١/١ ط دار الحديث ــ مصر .

بحي ، ولا سميع ولا بصير ، ولا قادر ، ولا متكلم ، ولا فعال لمن يريد ، ولا حكيم في أفعاله (١)

دلالة الظواهر علي أسماء الله الحسنى :

هـنـاك قـاعدة تقول : إن الآثار تدل علي الأسماء والأسماء تدل علي الصـفات ، والصفات تدل علي الذات ، فمثلا ظاهرة القدم وحدوث العالم ، تدل علي اسم الله الأول والخالق ، وظاهرة الحياة تدلّ علي اسم الله المحي والـبارئ والمميـت ، وظاهرة الهداية تدل علي اسم الله الهادي والمضل ، وظاهـرة الإبداع تدل علي اسم الله البديع ، وظاهرة الإجابة تدل علي اسم الله المجيـب ، وظاهرة النعمة تدل علي اسم الله المنعم المعطي ، وظاهرة الوحـدة تـدل عـلي اسم الله الواحد ، وظاهرة الحكمة ، تدل علي اسم الله الحكيم .. وعلي هذا فكل ظاهرة في هذا الكون تدل علي اسم من أسماء الله ـ تعالي .

غير أن دلالة الظواهر علي الأسماء والصفات تختلف باختلاف المتعلق واختلاف الارتباط .

فمنها ما يدل علي صفات الفعل .

ومنها ما يدل علي صفات الذات الوجودية .

ومنها ما يدل علي صفات الذات السلبية ، وكلها تدل علي موجود .

والذين نريد أن نشير إليه :

١ ـ أن ظواهر الكون ، تدل علي أسماء الله الحسنى، وأسماؤه تدل علي صفاته ، وصفاته تدل علي ذاته .

---

(١) المرجع السابق ٤٢/١ .

٢ ــ ممـــا تدلـــنا عـــليه ظواهر الكون ، أن الله ــ عز وجل ــ متصف بالعـــلم والإرادة ، والقـــدرة والحيـــاة ، والسمع والبصر ، والكلام والوحدانيـــة والـــبقاء ... ومن أسمائه : المذل ، المعز ، الرزاق ، المعطي ، المنعم ...

٣ ــ ونظـــرة إلـــي ما وصف الله ــ عز وجل ــ به ذاته ، أو سماه به رســـوله ــ صـــلي الله عليه وسلم ــ ترينا ما دلتنا عليه الظواهر بدلالـــة العقل علي ما دلنا عليه النص ، مع زيادة في النص تصعد بقولـــنا إلي منتهى الكمال والأدب ، ودين يأخذ بيد العقل إلي مثل هذه الذروة ، لا يبقي عند الإنسان شكاً بأنه وحي .

٤ ــ وفـــي كـــل ما مر آية علي أن المسلم قد اجتمع له صواب العقل ، وصـــفاء الفهم ، وسلامة الوحي ، الذي يأخذ بيد العقل والفهم إلي الطريق السوي .

وبعـــد هـــذا الـــتمهيد نذهب إلي أحكام الأسماء والصفات التي أوردها صاحب الجوهرة ...

" الله جل جلاله " ص ١١١ وما بعدها . سعيد حوى ط ٣، ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٨٧ م .

قدم الأسماء والصفات

قال صاحب الجوهرة :

وعندنا أسماؤه العظيمة كذا صفات ذاته قديمة

يتناول صاحب الجوهرة في هذا البيت الأحكام اللازمة لأسماء الله سبحانه وتعالى — فأسماء الله — تعالى — قديمة بإعتبار التسمية ؛ لأن الله سمى ذاته بها أزلاً ، كما أن صفاته تعالى قديمة أيضاً ؛ بمعنى أنها غير مسبوقة بالعدم .

ويوضح شارح الجوهرة الشيخ إبراهيم اللقاني أن أسماء الحق — تعالى — لولم تكن قديمة لكانت حادثة ، والله — سبحانه — منزه عن قيام الحوادث بذاته تعالى ، كما أنها لو لم تكن قديمة للزم كونه عاريا عنها في الأزل ، ويلزم افتقاره إلى مخصص ، وهذا ينافي الغني المطلق للحق — تعالى ، والصفات أيضاً مثل الأسماء قديمة ، أي : يجب لها القدم بمعنى : عدم مسبوقيتها بالعدم .

ولمزيد من التوضيح نذكر أبرز الآراء في هذه القضية .

<u>رأي الاشاعرة :</u>

يرى الأشاعرة أن الله — تعالى — سمى نفسه أزلاً بهذه الأسماء ، ثم علم خلقه إياها عن طريق وحيه إلى رسله ، كما أن صفاته — تعالى — ليست من وضع خلقه ، وإنما هي من وضعه جل شأنه ألهمها ملائكته ، ثم علمها خلقه ، فهي ليست حادثة .

فالله — سبحانه — مسمى بأسمائه قبل وجود الخلق ، وعند وجودهم ، وبعد فناءهم ، ولا تأثير لهم في أسمائه [١]

---

(١) انظر اتحاف المريد صـ ١٢٤ . تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد .

أدلة الأشاعرة على قدم الأسماء :

الدليـــل الأول : قال الله ــ تعالى : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه [١] ووجه الدلالة في الآية الكريمة : أن الله ــ تعـــالى ــ تعبدنا بأن ندعوه بأسمائه ، وما دامت المسأله تعبدية فيلزم أن نسميه بأسمائه التي سمى بها ذاته وليست من عمل الخلق [٢] .

الدليـــل الـــثاني : قال تعالى : " قل ادعو الله أو أدعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى " [٣]

ووجـــه الدلالـــة : أن الخلق سواء سموا الإله الحق باسم الله أو باسم الرحمن ، فإنه سبحانه واحد احـــــد له الأسماء الحسنى المتعددة ، وتعدد الأســـماء لايـــدل على تعدد الذات ، وإنما يدل على أن كمالات الله لا نهاية لها .

وجـــاء فـــي أسباب النزول عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما قال : تهجـــد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذات ليلة بمكة فجعل يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم .

فقـــال المشـــركون : كان محمد يدعوا لها واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثـــنين ، الله والـــرحمن ، مـــا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمه الكذاب ، فأنزل الله هذه الآية [٤]

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٢) راجع التوضيح المفيد على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد صـــ ٦ . الشيخ صالح شرف والشيخ عبد الحميد شقير .

(٣) سورة الأسراء الآية ١١٠ .

(٤) انظر أسباب النزول للواحدي صـــ ٢٢٣ ــ مكتبة المتنبي ــ القاهرة .

الدليــل الثالث : جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ــ صلى الله عــليه وســلم أنه قال : " ما أصحاب عبد ــ قط ــ هم ، أوغم ، ولا حزن فقــال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمــك ، عــدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل أسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلــته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عــندك أن تجعــل القــرآن ربيــع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب غمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكانه فرحاً " [١]

ووجــه الدلالــة في الحديث أن للمسلم أن يسأل الله بكل أسم هو له ، فبعضها الاسم الذي سمي به نفسه ، وبعضها الذي أنزله في كتاب من كتبه ، وبعضــها الــذي علمه أحداً من خلقه ، وبعضها الذي استأثر به في علم الغيب عنده ، وفي هذا دليل واضح على أنه ليس في أسماء الله ــ تعالى ــ ما هو من وضع البشر .

أما ما جاء في الحديث " إن لله تسعة وتسعين أسماً من أحصاها دخل الجــنة "[٢] فالمــراد مــن الحفظ والإحصاء الإيمان بها ، وتعقل معناها ، والتخــلق بها على قدر الطاقة البشرية ، فإذا كان الله عالماً رحيماً قادراً .. إلــخ فشــأننا أن نحــرص عــلى العلم النافع وأن نوظف قدرتنا في خدمة الضعفاء وذوي الحاجات .[٣]

(١) مسند الإمام أحمد

(٢) صحيح مسلم

(٣) القواعد المثلى للشيخ صالح بن العثيمين نقلا عن المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد صـــ ١٠ د. نشأت عبد الجواد

دليل الأشاعرة على قدم الصفات :

يـــرى الأشـــاعرة أن صـــفات الله ـــ تعالى ـــ قديمة لأنها لو لم تكن قديمة لكانت حادثة ، لكن التالى باطل ، فبطل ما أدى إليه من عدم قدمها ، وثبت نقيضه وهو قدمها .

أمـــا الملازمـــة بيـــن نفي القدم والحدوث ، فلأنه لا واسطة بين القدم والحدوث ، فإذا قدرنا القدم ثبت الحدوث .

وأمـــا بطـــلان الـــتالى وهـــو حدوث صفاته تعالى فلما يستلزمه من محالات ثلاثة هي :

١ـــ قيام الحوادث بذاته تعالى ، وهو محال .

٢ـــ كونـــه عاريا عن الصفات في الأزل قبل حدوثها ، وذلك نقص ، وهو مستحيل في حق الله ـــ تعالى .

٣ـــ احتياجه إلى مخصص وموجد ، والإحتياج في حقه تعالى مستحيل لما ثـــبت مـــن غناه المطلق من حيث كونه واجب الوجود (١) يؤكد هذا الكلام الإمـــام أبو حنيفة في قوله " لم يزل ولا يزل بأسمائه وصفاته لم يحدث له اسم ولا صفة " (٢)

المذهب الثاني : المعتزلة :

يري المعتزلة أن أسماء الله ـــ تعالي ـــ حادثة ، وهي من وضع الخلق ، فـــالله ـــ عز وجل ـــ كان أزلاً بلا اسم ، فلما خلق الخلق بقدرته وضعوا لـــه الأسماء والتي أطلقت عليه ، فالأسماء ليست قديمة لعدم وجود لفظ ولا لافظ من البشر .

---

(١) يراجع : اتحاف المريد بجوهرة التوحيد صـــ٧ تحقيق د. عبد الحكيم عثمان ط القاهرة ١٩٧٥ .

(٢) الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة شرح ملا على القارئ صـــ ٣٧ .

أمـــا عـــن رأيهم في الصفات فإنهم لم يتعرضوا للحديث عنها بالقدم أو الحدوث ؛ لأنهم ينكرونها ويقولون :إن الصفات عين الذات ، فالقديم عندهم ذات واحدة قديمة ، ولا يجوز إثبات ذوات قديمة .

واحتجوا علي قولهم هذا :

بـــأن القـــول بتعدد القدماء ــ الذات والصفات ــ كفر بالإجماع ، وبه كفرت النصارى حين قالوا : الذات الإلهية أقانيم ثلاثة قديمة (١)

وُرد عليهم بأن الكفر إثبات ذوات قديمة ، لا إثبات ذات واحدة وصفات قدماء .

ونحـــن لا نريد بسط القول في هذه القضية في هذا المبحث فلها موضع آخـــر من الدراسة والبحث ، وأري أن اختلاف المدارس الإسلامية في هذا الموضـــع ينـــتهي بها جميعاً إلي القول بوحدانية الله ــ تعالي ــ وتنزيهه ، والأولـــي والأجـــدر عـــدم الخوض والتشقيق فيها لأنها ــ كما يرى الإمام محمد عبده ــ ليست من مقاصد الشرع (٢)

تعقيب :

شاعت إرادة الله ــ سبحانه ــ أن يكشف للخلق أسماءه الحسنى ، وأن يدلهـــم على طريق الدعاء بها " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " (٣) ولو تصـــورنا ذلـــك الإنســـان الضعيف يعيش في الأرض دون أن يعرف هذه الأسماء ، كيف تكون حياته ، وأي معاناة تصيبه .

وإذا كـــان عـــلماء الـــتوحيد قـــد فصلوا القول فيما يتعلق بالأسماء والصـــفات ، وأبحـــروا في كثير من دقائقها وأسرارها ، فإن ما يهم المسلم

---

(١) راجع : مقالات الإسلاميين للأشعري ١٧٧/٢ ، ١٧٩ .

(٢) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٥٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨١ .

فــي عقيدتــه أن الله ــ سبحانه ــ قد وصف نفسه في كتابه ، وعلي لسان رســوله ــ صلي الله عليه وسلم ــ بصفات عليا ، وتعبد المؤمنين بالإيمان بهــا ، توسلا إليه وتقربا ، وسمي نفسه بأسماء حسني ، هي أحسن الأسماء وأكمــلها ، وأن المواظــبة عــلي ذكرها تطهر النفس ، وتصفي الروح ، لاســيما إذا كان الذكر بحضور القلب مع فهم المعني ، ولقد لاحظ العلماء هــذه الأســرار والحقائق ، فقد ألف الإمام أبو حامد الغزالي كتابا أسماه : المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى ، لاحظ فيه الصلة الوثيقة بين أســماء الله الحسنى وأخلاق المسلم ، وكتب في نهاية شرح كل اسم تنبيها يقول فيه :" وحظ العبد من هذا الاسم أن يكون كذا وكذا .

وعــلي قــدر ما يتعلق المسلم بأسماء الله ، وبقدر ما يأخذ من أخلاقها يكــون قد أخذ من التوحيد [1] وقد نقل الإمام البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله الحســين بن الحسن الحليمي ذكر خمس عقائد تنطوي تحتها معاني الأسماء الحسنى هي :

١ــ إثــبات وجود الباري ــ جل جلاله ــ لتقع به مفارقة التعطيل ــ مثل الأول والأخر والباقي والحق المبين .

٢ــ إثــبات وحدانيــته تعــالى لتقع البراءة من الشرك مثل الواحد والكافي والعلي ..

(١) راجــع : كــتاب المقصــد الأســني في شرح أسماء الله الحسني للإمام الغزالي ، ويــراجع كــتاب : الله في العقيدة الإسلامية ص ٢٥٩ للأستاذ أحمد بهجت ط المختار الإسلامي ١٩٧٦ م .

٣ـ أثـبات أنـه تعالى ليس بجوهر ولا عرض لتقع به البراءة من التشبيه مـثل الأحد والعظيم والعزيز والمتعالي والكبير والغني والسبوح والقدوس ..

٤ـ إثـبات أن وجـود كـل ما سواه كان من إبداعه واختراعه إياه ، لتقع الـبراءة من قول من يقول بالعلة والمعلول مثل : الله والحي والعالم والقادر والحكيم والسيد والجليل والبديع والباري والخالق والمصور والمقتدر .

٥ـ إثـبات أنه تعالى مدبر ما أبدع ومصرفه على ما يشاء لتقع به البراءة مـن قول القائلين بالطابع أو بتدبير الكواكب أو تدبير الملائكة مثل : المدبر والقيـوم والرحمن الرحيم والحليم والكريم والعفو والغفار والغفور والرؤف والصمد والحميد والفتاح والمهيمن والمقيت [١]

(١) الأسماء والصفات للإمام البيهقي صـ ٦١ط دار الكتب العلمية .

اسم الله الأعظم

للعلماء في التفاضل بين أسماء الله ــ تعالى ــ رأيان :

١ــ فريق يرى أن أسماء الله ــ تعالى ــ متفاضلة وأعظمها لفظ الجلالة وهو اسم الله الأعظم،واستدلوا على ذلك بكثير من النصوص منها:

ــ قوله تعالى " **ولذكر الله أكبر** " (١)

ــ وقوله تعالى " **وكلمة الله هي العليا** (٢)

ــ عن بريدة ــ رضي الله عنه ــ قال : سمع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ رجلاً يدعو ، وهو يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحداً " فقال : " والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سأل به أعطى " (٣)

وعن أسماء بنت يزيد ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم في هاتين الآتيين :

" **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** " (٤)

" **ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم** " (٥)

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥

(٢) سورة التوبة الآية ٤٠

(٣) الترمذي .

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

(٥) سورة آل عمران الآية الآية ١ ينظر : في نور العقيدة الإسلامية صــ ١٤٠ د. محمد سيد أحمد المسير ــ دار الطباعة المحمدية ١٤١١هــ ١٩٩٠م .

ـــ وعـــن أنس بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ قال : دخل النبي ـــ صلى الله عـــليه وسلم ـــ المسجد ورجل قد صلى ، وهو يدعو ، ويقول في دعائه : الـــلهم لا إلـــه إلا الله أنـــت المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والأكـــرام ، فقال النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ " أتدرون بما دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى " (١)

وقد بين الإمام الغزالي في كتابه المقصد الأسني أن الأسماء الحسنى يجوز أن تـــتفاوت فضـــليتها لتفاوت معانيها في الجلال والشرف، وأعظم الأسماء التســـعة والتســـعين هو اسم :الله ؛ الذي يدل على الصفات الجامعة للصفات الإلهيـــة كـــلها ، وهو أخص الأسماء ؛ لأنه لا يطلقه أحد على غيره ، لا حقيقة ولا مجازاً ، وأما سائر الأسماء فقد تسمى بها غيره (٢)

٢ـــ أمـــا الفريق الثاني فيرى أنه لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعـــض ، وأن كل اسم من أسمائه ـــ تعالى ـــ يذكره العبد مستغرقاً فيـــه فذلك الاسم هو :الأعظم ، وأن ما ورد من ذكر الاسم الأعظم في السنة فمراد به العظيم .

ومن هنا : فإن المراد باسم الله الأعظم حالة نفسية يستشعر المرء فيها جـــلال الله وكمالـــه ، فتجعله ضارعاً موقنا بالإجابة شأن دعوة المضطر ، فيحقق الله رجاءه ويجيب دعاءه (٣)

ونقل الإمام الرازي أن رجلا سأل جعفراً الصادق ـــ رضي الله عنه ـــ عـــن الاســـم الأعظـــم فقال له : قم وأشرع في هذا الحوض واغتسل حتى

---

(١) الترمذي .

(٢) المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد الغزالي صـــ ٤٨ ، ١٢٦،١٦١ ط مكتبة الجندي ـــ القاهرة .

(٣) في نور العقيدة الإسلامية ص ١٣٧ .

أعــلمك الاســم الأعظم فلما شرع في الماء واغتسل ، وكان الزمان زمان الشـتاء ، والماء في غاية البرد ، فلما أراد أن يخرج من جانب الماء ، أمر جعفــر أصحابه حتى منعوه من الخروج عن الماء ، وكلما أراد أن يخرج ألقــوه فــي ذلك الماء البارد ، فتضرع الرجل إليهم كثيراً فلم يقبلوا قوله ، فغلب علي ظن الرجل أنهم يرون قتله وإهلاكه ، فتضرع إلي الله ــ تعالي ــ فــي أن يخلصـــه منهم ، فلما سمعوا منه ذلك الدعاء أخرجوه من الماء وألبسوه الثياب وتركوه حتى عادت إليه قوته ، ثم قال لجعفر الصادق : الآن علمني اسم الله الأعظم .

فقــال جعفر : يا هذا إنك قد تعلمت الاسم الأعظم ودعوت الله به وأجابك ، فقال : كيف ذلك ؟

قــال جعفر : إن كل اسم من أسمائه ــ تعالي ــ يكون في غاية العظمة ، إلا أن الإنســـان إذا ذكر اسم الله عند تعلق القلب بغير الله لم ينتفع به ، وإذا ذكــره عــند انقطاع طمعه من غير الله كان ذلك الاسم الأعظم ، وأنت لما غلب علي ظنك أنا نقتلك لم يبق تعويل إلا علي فضل الله ، ففي تلك الحالة أي اسم ذكرته فإن ذلك الاسم هو الاسم الأعظم (١)

ومما يدل علي هذا الاتجاه أن النصوص الواردة في اسم الله الأعظم لم تلتزم اسما معيناً ، وإنما أطلقت علي أسماء متعددة كما سبق أن ذكرناه في ذكــر رأي الفريق الأول ، فهناك نصوص لم يقلها رسول الله ــ صلي الله عليه وسلم ــ وإنما أقرها وهناك نصوص أخرى قالها صلي الله عليه وسلم وعلمها أصحابه (٢)

---

(١) شرح أسماء الله الحسنى للإمام فخر الدين الرازي ص ٨٨ .

(٢) في نور العقيدة الإسلامية ص ١٣٩ .

والـــذي ترتاح إليه النفس أن اسم الله الأعظم أخفاه الحق ـــ سبحانه ـــ ضـــمن الأسماء الحسنى لحكمة يعلمها هو ، ولعل من أهمها : الاجتهاد في الطاعـــة ، والاستغراق في الذكر ، واستشعار القلب بعظمه الباري ـــ جل جلاله ـــ واتصاله بالملأ الأعلى .

أسماء الله ــ تعالي ــ وصفاته توقيفية

قال صاحب الجوهرة :

واختير أن أسماءة توقيفيه كذا الصفات فلحفظ السمعية

واضـــح مـــن هذا البيت الذي أورده صاحب الجوهرة أن أسماء الله ــ تعالي ــ وصفاته موقوفة علي إذن الشارع بإطلاقها .

وهـــذا ما أكده شارح الجوهرة العلامة عبد السلام اللقاني حيث بين أن إطلاق الأسماء والصفات عليه تعالي يتوقف علي الإذن الشرعي ، فما أذن فـــي إطلاقـــه واستعماله مما لم يكن إطلاقه موهما نقصا ، بل كان مشعراً بـــالمدح ــ جـــاز اتفاقا ، وإلا فعلي المنع والتحريم ؛ إذ لا يجوز أن يسمي النـــبي ــ صلي الله عليه وسلم ــ بما ليس من أسمائه ، بل لو سمي واحد من أفراد الناس بما لم يسمه به أبوه لما ارتضاه ، فالباري سبحانه أولى (١)

والسؤال المطروح الآن : هل يجوز إطلاق أسماء عليّ الله ــ تعالي ــ لم يرد بها إذن من الشارع ؟

علماء العقيدة لهم رأيان في هذه القضية :

الفريق الأول :

ذهـــب إلي أنه لا يجوز إطلاق الأسماء والصفات علي الله ــ عز وجل ــ مـــا لم يرد بها إذن من الشارع ، فما أذن به الشارع ، وورد من طريق صـــحيح قام الاتفاق علي جواز استعماله ، شريطه ألا يوهم نقصا في حق الله ــ تعالي ــ وهذا هو الرأي الذي رجحه صاحب الجوهرة في قوله :

" واختير أن أسماءة توقيفية "

ويقول إمام الحرمين الجويني : " ما ورد الشرع بإطلاقه في أسماء الله ــ تعـــالي ــ وصفاته أطلقناه ، وما منع الشرع من إطلاقه منعناه ، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم ، فإن الأحكام الشرعية

---

(١) إتحاف المريد ص ٢٧ تحقيق د. فتحي أحمد عبد الرازق

تتـــلقي من موارد السمع ، ولو قضينا بتحليل أو تحريم من غير شرع لكنا مثبتين حكماً دون السمع " (١)

وهذا الرأي هو الذي أخذ به جمهور أهل السنة ، وقرروا أن المصـادر الشرعية التي يتوقف عليها الإذن بإطلاق الأسماء والصفات هي :

ـــ القرآن الكريم .

ـــ السنة الصحيحة والحسنة .

ـــ الإجماع ، لأنه يعتمد علي المصدرين السابقين د

وقد قسم أهل السنة أسماء الله ـــ تعالي ـــ إلي ثلاثة أقسام :

الأول : ما يدل علي ذاته كالواحد ، والأول ، والآخر ، والمغني والجليل ، وسائر ما استحقه من الأوصاف لنفسه .

الـــثاني : مـــا يفيد صفاته الأزلية القائمة بذاته كالحي ، والقادر ، والعالم ، والمُريد ، والسميع ، والبصير ، وسائر الأسماء المشتقة من صفاته القائمة بذاته .

وهـــذا القسم من أسمائه مع القسم الذي قبله لم يزل الله ـــ تعالي ـــ بهما موصوفاً ، وكلاهما من أوصافه الأزلية .

الـــثالث : ما هو مشتق من أفعاله ، كالخالق ، والرزاق ، والعادل ، ونحو ذلـــك ، وكـــل اســـم اشتق من فعله لم يكن موصوفا به قبل وجود أفعاله .

وقـــد يكـــون مـــن أسمائه ما يحتمل معنيين ، أحدهما : صفة أزليه ، والآخـــر : فعـــل له كالحكيم إن أخذناه من الحكمة التي هي العلم كان من

(١) الارشاد الي قواط الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين الجويني ص ١٤٢ .

أســمائه الأزلية ، وإن أخذناه من إحكام أفعاله وإتقانها كان مشتقا من فعله ولم يكن من أوصافه الأزلية (١)

ونــود أن نشير إلي أن البغداديين من المعتزلة قد اتفقوا مع أهل السنة علي أن أسماء الله ــ تعالي ــ مأخوذة من التوقيف والأذن من الشارع .(٢)

الفريق الثاني :

يري البصريون من المعتزلة أن مدارك أسماء الله ــ تعالي ــ وصفاته لا تنحصر في الشرع ، ويمكن أن تؤخذ من الاصطلاح والقياس ، فإن دل العقل علي اتصافه تعالي بصفة وجودية أو سلبية جاز أن يطلق عليه تعالي اسم يدل علي اتصافه بها سواء ورد بهذا الإطلاق إذن شرعي أو لم يرد .

وقــد وافق الإمام الغزالي المعتزلة في جواز إطلاق الصفة علي الله ــ تعالي ــ وهي التي تدل علي معني زائد علي الذات إذا لم يرد بها إذن من الشــارع ، ومنع إطلاق الاسم وهو ما دل علي نفس الذات إلا إذا ورد به إذن من الشارع وبذا خالف المعتزلة (٣)

رأي الشرع في الأسماء التي يوهم ظاهرها نقصاً في حقه تعالي :

وردت فــي الشــرع ألفاظ يوهم ظاهرها نقصا في حق الله ــ تبارك وتعالي مثل :

١ ــ الصبور ، وظاهر اللفظ يوهم وصول المشقة حيث إن الصبر هو : حــبس الــنفس علي المشاق ، وهذا لا يليق به عز وجل ، بل هو مستحيل في حق الله ــ تعالي .

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٩١ .

(٢) راجع المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد ص ٢٩ د. نشأت عبد الجواد ــ دار الطباعة المحمدية ١٤١٧ هــ ــ ١٩٩٧ م .

(٣) نفســه ص٢٩

ويجاب عن ذلك : بأن المراد من الصبور في حق الله ــ تعالي ــ بأنه الذي لا يعجل بالعقوبة للعصاة [١]

٢ ــ الشـــكور : المعني المعروف لهذا الاسم : كثير الشكر لمن أحسن إليه ، وهذا يوهم وصول إحسان إليه ، فلا يليق بذاته تعالي .
والواجب أن نؤمن به ونفسره بما يليق بالله تعالي .
فمعـــني الشـــكور في حقه ــ عز اسمه ــ : هو الذي يجازي علي القـــليل مـــن الطاعـــات ، أو الذي يقبل القليل من العمل ، ويعطي الجزيل ، أو الذي يثني علي من أطاعه .
ومـــن الأمـــور التي أكرم الله ــ تعالي ــ بها أمة سيدنا محمد ــ صـــلي الله عـــليه وســـلم ــ خاصة ــ زيادة الثواب مع القليل من العمل [٢] .

٣ ــ الحليم : وهذا الاسم يوهم في الظاهر ــ وصول الأذى إلي صاحبه ، وهذا مما لا يليق به سبحانه وتعالي .
ويكـــون إذاً معني الحليم : أي الذي لا يعجل بالعقوبة لمن عصاه ، وهـــو ســـبحانه مطـــلع علي معصية العصاة ، ومع هذا لا يسارع بالانتقام مع غاية الاقتدار ، يقول سبحانه :
" ولـــو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك علي ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلي أجل مسمي فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً [٣]

(١) تحفة المريد ص ٩٠ .
(٢) تحفة المريد ص ٩٠ .
(٣) سورة فاطر الآية ٤٥ .

وفي موضع آخر يقول جل شأنه :

" **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلي أجل مسمي ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** "(١)

وتجـدر الإشـارة إلـي أنّ من أسماء الله ـ تعالي ـ ما لا يطلق إلا مقـترناً بمقابـلة ، فـإذا أطلقَ وحده قد يوهم النقص أيضا في حق الله ـ تبارك وتعالي .

ومـن ذلـك : المعطـي المـانع ، والضار النافع ، والقابض الباسط ، والمعـز المـذل ، الخافض الرافع ، فلا يطلق علي الله ـ تعالى ـ المانع الضـار ، أو القـابض أو المـذل عـلي انفـراده ، بل لابد من ازدواجها بمقابلاتهـا ، ومـن ذلك المنتقم فلم يرد في القرآن إلا مضافاً إلي ذو كقوله تعالي : " **عزيز ذو انتقام** " (٢) أو مقيداً بالمجرمين كقوله تعالي : " **إنا من المجرمين منتقمون** " (٣)

كمـا نود أن نشير إلي أنه قد ورد في القرآن أيضا أفعال أطلقها الحق ـ تبارك وتعالي ـ عليٰ نفسه ، وذلك علي سبيل الجزاء العادل والمقابلة ، وقـد سيقت في مقام الكمالِ والمدح ؛ لكن لا يجوز أن يشتق له تعالي منها اسماً ، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه الآيات كقوله تعالي :

" **نسوا الله فنسيهم** "(٤)

" **ومكروا ومكر الله** "(٥)

---

(١) سورة النحل الآية ٦١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٤ .

(٣) سورة السجدة الآية ٢٢ .

(٤) سورة التوبة الآية ٦٧ .

(٥) سورة آل عمران الآية ٥٤ .

" إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم "[١]

" الله يستهزئ بهم " [٢]

ونحـــو ذلك فلا يقال : الله يخادع أو يمكر أو ينس علي سبيل الإطلاق تعالي الله عن ذلك علواً كبيراً [٣]

والذي نرجحه أخيرا أنه يجب الوقوف علي ما ورد في الشرع في هذه المســألة بمعـــني أنـــه لا يجوز إطلاق اسم أو صفة علي الحق ــ تبارك وتعــالي- مــا لــم يرد في الشرع (الكتاب والسنة) وهذا من باب الاحتياط والوقوع في الزلل والخطأ ، وقد أحسن صاحب الجوهرة في قوله :

واختير أن أسماءه توقيفية   كذا الصفات فلحفظ السمعية

(١) سورة النساء الآية ١٤٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥ .

(٣) راجـــع : الصفات الواجبة والمستحيلة والجائزة في حق الله ــ تعالي ــ ٣٣/١ وما بعدها ، طه عبد الله عفيفى ط دار التأليف ــ مصر .

النصوص الموهمة للتشبيه

تمهيد :

إن عقل الإنسان ــ مهما كان مبلغه من الذكاء والمعرفة وقوة الإدراك - قاصـــر غاية القصور وعاجز غاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء ، ذلك أن معـــرفة الـــنفس الإنسانية لا تزال من أعقد المسائل التي حيرت عقول العلماء والفلاسفة .

العقـــل البشـــري عاجز عن معرفة حقيقة الضوء مع أن الضوء من أظهر الأشياء و أوضحها .

وهو أيضاً عاجز عن معرفة حقيقة المادة وحقيقة الذرات التي تتألف منها، رغم أن المادة ألصق شئ بالإنسان

الكـــثير والكـــثير من الحقائق الكونية لم يستطـع العلم أن يبدي رأيه فيها ، ولعـــل هـــذا ما عبر عنه العلاقة العلامة الفلكي " كاميل فلا مريون " قائلاً : "ترانا نفكر ولكن ما هو الفكر ؟ لا يستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال ، ونـــرانا نمشي، ولكن ما هو العمل العضلي ؟ لا يعرف أحد ذلك؟ أرى أن أرادتي قـــوة غير مادية وأن جميع خصائص نفسي غير مادية أيضاً ، ومع ذلـــك فمتى أردت أن أرفع ذراعي ، أرى أن إرادتي تحرك مادتي ، فكيف يحـــدث ذلـــك ، وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في إنتاج نتيجة مادية؟ يوجد من يستطيع أن يجيبني عن هذا أيضاً ، بل قل لي : كيف ينقل العصب البصري صور الأشياء إلى العقل ؟

وقـــل لـــي : كيف يدرك العقل هذا ؟ وأين مستقره ؟ وما هو طبيعة العمل المخي ؟ (١)

---

(١) العقائد الإسلامية صـــ ٣٣ للشيخ سيد سابق ط الفتح للاعلام العربي ١٤١٢هـــ ١٩٩٢

وإذا كـــان موقف العقل هكذا تجاه النفس والضوء والمادة ، وما في الكون المنظور وغير المنظور من أشياء فكيف يتطلع إلى معرفة ذات الباري جل شأنه .

إن ذات الله أكبر من تدركها عقول البشر المحدودة أو تحيط بها أفكارهم .

وقـــد وصـــف الحـــق تـــبارك وتعالى ــ نفسه بصفات من الصعب إدراك حقيقـــتها على النحو الذي ندرك به أمورنا المعتادة ، ذلك أن شأن الألوهية أســـمى مما تتصوره الأذهان الكليلة والعقول القاصرة ، وقد حاول كثير من عـــلماء الإسلام استكناه دلالة الصفات واستكشاف حقيقتها ، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وخاصة تلك الصفات الخبرية ، أو ما سماه البعض بالنصوص الموهمة للتشبيه أو المتشابه (١)

بعد ذلك نورد نص صاحب الجوهرة في هذا الموضوع حيث يقول :

وكل نص أوهم التشبيها   أوله أو فوض ورم تنزيها

وبداية نقول : إن أهل السنة والمعتزلة وسائر العقلاء قد اتفقوا على أن الله ــ ســـبحانه وتعـــالى ــ لا يشـــبه المخلوقات فذاته ــ عز اسمه ــ مخالفة لســـائر الـــذوات ، ولا يماثلـــه شئ من المخلوقات في شئ من صفاته قال تعالى : "أفمن يخلق كمن لا يخلق " (٢)

وقال تعالى : " ليس كمثله شئ " (٣)

وقال تعالى : " هل تعلم له سميا " (٤)

---

(١) الشهادتان : التوحيد والنبوة صـــ ٢٥ الشيخ محمد الغزالي ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٠هـــ ــ ١٩٦١م

(٢) سورة النحل الآية ١٧.

(٣) سورة الشورى الآية ١١

(٤) سورة مريم الآية ٦٥

وقال سبحانه : " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " (١)

وقد وضح الشيخ عبد السلام اللقاني – شارح الجوهرة – أن السلف – رضوان الله عليهم – ينزهون الله – سبحانه – عما يوهمه الظاهر من النصوص ، ويفوضون علم حقيقته على التفصيل إليه تعالى ، مع الاعتقاد أن هذه النصوص من عنده سبحانه .

أما الخلف فإنهم يجيزون تأويل هذه النصوص تأويلاً تفصيلياً ، وذلك في ضوء قواعد اللغة التي نزل بها القرآن الكريم .

منشأ الخلاف بين السلف والخلف :

يرجع منشأ الخلاف بين السلف والخلف إلى اختلافهم في الوقف على قوله تعالى : " **وما يعلم تأويله إلا الله** ، **فمن وقف علي قوله : إلا الله** " **وجعل** "**والراسخون في العلم** " كلاماً مستأنفا قال : إن معرفة معني المتشابه والذي هو مصروف عن ظاهره مختص بالله – سبحانه وتعالي – والله وحده أعلم بمراده .

إن السلف يقفون علي لفظ الجلالة في الآية الكريمة " **وما يعلم تأويله إلا الله** " ويعدون قوله سبحانه " **والراسخون في العلم** " استئنافاً، وبذلك يكونوا قد فوضوا المعني المراد إلي الله – تعالي .

أما الخلف فقد جعلوا قوله تعالي : " **والراسخون في العلم** " معطوفاً علي لفظ الجلالة ووقفوا علي نهاية قوله تعالي : " **والراسخون في العلم** " وجملة : " **يقولون آمنا به** " مستأنفة .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢، وينظر : اتحاف المريد بجوهرة التوحيد صـ٤٩ وما بعدها تعليق وشرح د. فتحي أحمد عبد الرزاق ١٤١٢هـ – ١٩٩١م

ويكون المعني أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ثم الراسخون في العلم دون غيـــرهم ، وبـــناء عـــلي ذلك فقد جوزوا البحث والخوض في معني المتشـــابه للراسخين في العلم ، وأولوا النصوص المتشابهة وأعملوا عقولهم فيها بما يليق بالله ـــ سبحانه (١)

أنواع المتشابهات :

يجدر بنا هنا أن نذكر أنواع المتشابهات حتى تتضح لنا حقيقة الأمر :

١ ـــ مـــا لا يستطيع البشر ـــ جميعا ـــ أن يصلوا إليه كالعلم بذات الحق ـــ ســـبحانه ـــ وحقـــائق صفاته ، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيـــوب التي استأثر الله بعلمها " **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** " (٢)

" **إن الله عـــند علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير** " (٣)

٢ ـــ مـــا يســـتطيع كـــل إنســـان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس كالمتشـــابهات التي نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب وغيرها .

٣ ـــ ما يعلمه الخواص من العلماء دون عامتهم ، ولذلك أمثلة كثيرة من المعـــاني العالية التي تفيض علي قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله . وهو المشار إليه في قول الرسول ـــ صلي الله

(١) توضيحات في العقائد ص ٥٧ ، ٥٨ د/ محمد شمس الدين إبراهيم سالم .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٣) سورة لقمان الآية ٣٤ .

عـــليه وســـلم ـــ لعبد الله بن عباس " اللهم فقهه في الدين وعلمـــه التأويل " (١)

ويري ابن حزم أن الراسخون في العلم ـــ وحدهم ـــ هو الذين يعلمون المتشـــابه الذي بينه الله في قرآنه واشتملت عليه سنة رسوله ، والراسخ في العـــلم:هو الذي برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، وعف بطنه ، وابـــتعد عن الملذات ، وكبح شهواته ، ومن هنا كان تمييز الراسخ في العلم وســـمو منزلته وارتفاع مكانته ، ولو لم يكن هذا حاله من حيث توافر هذه الصـــفات ، ومعـــرفة تأويل المتشابه لكان حاله وهو راسخ في العلم كحال غيره (٢)

هل هناك حكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم ؟

شـــاءت إرادة الله ـــ تعـــالي ـــ أن يشتمل القرآن الكريم علي المحكم والمتشابه ؛ فالمحكم واضح الدلالة ، لا يحتاج إلي مزيد بيان ولا يحتمل إلا وجهـــا واحـــداً ، أمـــا المتشـــابه فيحتمل أكثر من وجه ويحتاج إلي بيان وتوضـــيح وهو المجمل غير المفسر،والذي يحتاج إلي جهد جهيد في تبيانه ، ولعل هذا من باب الابتلاء ، لأنه لو كان كل القرآن مكشوفاً ، يستوي في معرفـــته العـــالم والجـــاهل لبطل التفاضل بين الناس ، وماتت الخواطر ، وسقطت المحنة.

وقد أورد الإمام السيوطي ـــ رحمه الله ـــ إجابة شافية لورود المتشابه فـــي القرآن الكريم حيث قال :"والجواب أن العلماء ذكروا لوقوع المتشابه

(١)مناهل العرفان للزرقاني ٢٨١/٢ ،

(٢)راجع الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١٢٤/٤ ، ١٢٥ ط ١ مطبعة السعادة ـــ مصر .

فيه فوائد منها : أنه يوجب مزيد المشقة في الوصول إلى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب .

ومنها : أنه لو كان القرآن كله محكماً لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد ، وكان بصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب ، وذلك مما ينفر أرباب سائر المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه والانتفاع به ، فإذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه طمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يؤيد مذهبه ، وينصر مقالته ، فينظر فيه جميع أرباب المذاهب ، ويجتهد في التأمل فيه صاحب كل مذهب ، وإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات ، وبهذا الطريق يتخلص المبطل من باطله وينتقل إلى الحق .

ومنها : أن القرآن إذا كان مشتملا على المتشابه افتقر إلى العلم بطريق التأويلات وترجيح بعضها على بعض ، وافتقر في تعلم ذلك إلى علوم كثيرة منها : علم اللغة والنحو والمعاني والبيان ، وأصول الفقه ، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يحتج إلى تحصيل هذه العلوم الكثير في إيراد المتشابه هذه الفوائد الكثيرة .

ومنها: أن القرآن مشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنفر في أكثر الأمر عن درك الحقائق ، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متميز ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم وقع في التعطيل ، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما توهموه وتخيلوه ويكون ذلك مخلوطاً مما يدل على الحق الصريح .

فالقســـم الأول وهـــو الـــذي يخاطـــبون به في أول الأمر يكون من المتشـــابهات ، والقســـم الـــثاني وهـــو الذي يكشف لهم في آخر الأمر من المحكمات [١]

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/١٣ .

مذهب السلف

السلف : قيل : هم العلماء العدول الوارثون عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الحقائق والمعارف والعقائد ، وقيل : هم السادة الأخيار إلى نهاية المائة الثالثة من الهجرة النبوية المباركة ، وقيل : قبل نهاية المائة الخامسة من الهجرة (١)

ومصدر تحديد السلف يبدو راجعا إلى الحديث النبوي الشريف في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته " (٢)

وحاصل مذهبهم في هذه القضية التي نحن بصددها:أنه يجب الإيمان بالنصوص المتشابهة ، والقطع بأن مراد الله منها شئ غير ظواهرها ، ويجب تفويض معناها إلى الله وإمرارها كما جاءت ، لأنها من المتشابه الذي لا يعلمُ تأويله إلا الله .

ولنذهب إلى الإمام الغزالي حيث نجده يشرح مذهب السلف شرحاً وافياً فيقول في البداية .

" أعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف ــ أعنى مذهب الصحابة والتابعين ــ وها أنا أورد بيانه وبرهانه فأقول : حقيقة مذهب السلف ــ وهو الحق عندنا ــ أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور-: التقديس ، ثم التصديق ، ثم الاعتراف بالعجز ، ثم السكوت ، ثم الإمساك، ثم الكف ، ثم التسليم لأهل المعرفة .

---

(١) راجع : ايضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل صـ ٤٠ محمد إبراهيم بن سعد بن جماعة . تحقيق الشيخ ذهبي سليمان الألباني ط ١ دار التأليف ١٩٩٠ .

(٢) البخاري ومسلم وينظر : المنهج الجديد صـ ٣٤

أمـــا التقديس فأعنى به تنزيه الرب ــ تعالى ــ عن الجسمية وتوابعها ... وأما التصديق فهو الإيمان بما قاله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأن ما ذكره حـــق ... وأمـــا الســـكوت فأن لا يسأل عن معناه ولا يخص فيه ويعلم أن سؤاله عنه بدعه ، وأنه في خوضه فيه فيه مخاطر بدينه ... وأما الإمساك فـــأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى ، والزيادة فيـــه والنقصان منه ، والجمع والتفريق ؛ بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الأعراب والايراد والتصريف والصيغة .

وأما الكف فإنه يكف باطنه عن البحث عنه والتفكير فيه ، فهو واجب على العـــامي كمـــا وجـــب عليه إمساك اللسان عن السؤال والتصرف ... وأما التسليم لأهل المعرفة فإنه يعتقد أن ذلك إن خفي عليه لعجزه فقد خفي على رســـول الله ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء .(١)

والواقـــع أنـــه لم يرد عن أحد من الصحابة ــ رضوان الله عليهم أنه سأل رســـول الله ــ صـــلى الله عليه وسلم عن معنى شئ مما وصف الرب ــ سبحانه ــ به نفسه في القرآن الكريم ، أو على لسان نبيه ــ صلى الله عليه وســـلم ، بـــل كـــلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام في الصفات ، وأثبـــتوا له ــ تعالي ــ الصفات الأزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والعزة والعظمة ..

(١) راجع : إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي صـــ ٢،٣ ــ المطبعة المحمودية التجارية ــ القاهرة ــ ١٣٥٠هـــ ــ ١٩٣٢م

وساقوا الكلام سوقا واحداً [١]

إنهـم اكتفوا بإثبات ما أثبته الله لنفسه ، مع ملاحظة أنهم نزهوا الله — تبارك وتعالي — عن كل نقص أو مشابهة للحوادث ، مع التفويض والتسليم وعـدم محاولـة البحث وراء اللفظ حيث الزمنا الشرع بالاعتقاد بأن الله — تعـالي — واحـد أحـد ، لا شريك له ، " **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** " [٢]

ويمكنـنا هـنا أن نعطي ملاحظات عامة علي مذهب السلف في غاية الأهمية .

١ — آمـن السـلف — رضـوان الله عليهم — بالمتشابهات (الصفات الخـبرية) فأجـروها عـلي ظاهرها ، ولم يتعرضوا لتأويلها ولا استهدفوا التشبيه ، ولكن أجمعوا علي إمرارها كما جاءت .

٢ — اعترافهم بعجز العقل الإنساني عن إدراك كنه وحقيقة هذه الصفات وقـالوا : العجـز عن الإدراك إدراك . فآمنوا بالظاهر ، وتوقفوا عنده ، وعملوا به ، وزجروا من حاول الخوض فيه .

٣ — لـم يؤثـر عنهم الجدل في هذه الصفات ولا مناقشتها ، فمن أمعن النظر في الحديث النبوي ، ووقف علي الآثار السلفية ، علم أنه لم يـرد قـط ، من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة — رضي الله عنهم — علي اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم — أنه سأل رسول الله — صلي الله عليه وسلم — عن معني هذه المتشابهات ،

---

(١) الخطط للمقريزي ١٨١/٤ — القاهرة ١٣٤٢ هـ .

(٢) سورة الشورى الآية

بل كانوا جميعا ينكرون الجدل والمراء في الدين ، والخصومة في القدر ..

٤ — كانت النزعة الغالبة علي أكثرهم التوقف في مسائل العقيدة والاقتصاد في الجدل الديني ، والتسليم لما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة [١]

أسباب توقف السلف في المتشابهات :

رفض السلف — رضوان الله تعالي عليهم — الخوض في المتشابهات لأسباب كثيرة منها :

١ — المنع الوارد في القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالي :" **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله** " وهنا وَقفة لازمة عندهم ، " **والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب** "[٢]

وبناء عليه فقد تحرزوا من الوقوع في الزيغ ، ففوضوا المعني إلي الله تعالي ، ولم يتعرضوا للتأويل .

٢— يرى السلف — رضي الله عنهم — أن التأويل أمر ظني باتفاق ، والقول في صفات الله — تعالى — بالظن الذي يحتمل الخطأ غير جائز ، فربما أولنا الآية على غير مراد الله — تعالى — فوقعنا في الخطأ ، بل نقول كما قال الراسخون في العلم : آمنا به كل من

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ٢٠٥ وما بعدها د/ عرفان عبد الحميد ط ٢ — دار البشير — الأردن — ١٤١٧ هـ — ١٩٩٧ م .

(٢) سورة آل عمران الآية ٧ .

عند ربنا ، آمنا بظاهرة ، وصدقنا بباطنه ، ووكلنا علمه إلى الله ــ تعالى . (١)

٣ــ مــن المعــروف أن التأويل يختلف باختلاف وجهة نظر المفسرين ومذاهــبهم الدينية والسياسية ، فإذا تركنا الأمر للتأويل معناه فتح الباب على مصراعيه لتفسيرات متباينة ومختلفة ، وذلك أمر يؤدي إلى تفرق الأمة وهو حرام (٢)

وهذه بعض النماذج لمواقف السلف ــ رضوان الله تعالى ــ عليهم .

١ــ ســئل الإمــام محمد بن شهاب الزهري (المتوفي سنة ١٢٥هــ) والإمام مكحول ــ توفي وله بضعة عشرة سنة ــ سئلا عن تفسير أحــاديث الصــفات ؟ فقالا : امروها كما جاءت ، وروى مثل هذا الجــواب عــن الإمــام مالك ، والليث ، والثورى فقالوا جميعاً في أحاديث الصفات : أمروها كما جاءت بلا كيف (٣)

٢ــ أمــا سفيان بن عيينه فيقول : " ما وصف الله ــ تبارك وتعالى ــ نفسه في كتابه فقراءته تفسيره " ، وليس لأحد أن يفسره " (٤)

٣ــ وقال الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه :" آمنت بالله وبما جاء عن الله ، وعــلى مــراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله "على مراد رسول الله (٥)

---

(١) راجع : أساس التقديس في علم الكلام للإمام فخر الدين الرازي صــ ١٨٣ط القاهرة ١٩٣٥م .

(٢) الملل النحل ٩٥/١

(٣) البخاري ، ويراجع الصفات الالهية في ضوء الكتاب والسنة صــ ٦٧ د. محمد أمان الجامي ــ دار الإيمان ــ مصر .

(٤) الأسماء والصفات للبهيقي صــ ٣١٤ .

(٥) لمعة الأعتقاد لابن قدامة المقدس صــ٦

٤ــ أمـــا الإمام عبد العزيز بن سلمة ــ إمام أهل المدينية فيقول " كلت الألســـنة عـــن تفســـير صفته ، كما انحصرت العقول دون معرفة قدره "(١)

٥ــ وهــذا هــو الإمام ابن كثير ــ رحمه الله ــ يقول:" وقد روى عن الـــربيع وغير واحد من رءوس أصحابه ما يدل على أنه كان يمر بآيـــات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تحريف ، على طريقة السلف " (٢)

٦ــ وثـــبت عن الربيع بن سليمان قال سألت الشافعي ــ رضي الله عنه ــ عن صفات الله ــ تعالى ــ فقال:حرام على العقول أن تمثل الله ، وعلى الأوهام أن تحده ، وعلى الظنون أن تقطع ، وعلى النفوس أن تفكــر ، وعلى الضمائر أن تتعمق ، وعلى الخواطر أن تحيط ، وعـــلى العقول أن تعقل ، إلا ما وصف به نفسه على لسان نبيه ــ عليه الصلاة والسلام " (٣)

هـــذه هي بعض أقول أئمة السلف ــ رضوان الله تبارك وتعالى عليهم ــ فـــي الصـــفات الخـــبرية نلاحـــظ فيها عدم الولوج والخوض في حرم الصفات المقدسة .

أنه موقف عقلي متماسك ، يلجم العقل بالعقل نفسه ويثبت عجز العقل عـــن الإدراك بـــالعقل نفسه ويسلم قياده إلى بارئه ، وهذا موقف ــ في حد ذاتـــه ــ أســـلم وأعـــلم وأحكم ذلك أنه لم يغامر بزورق العقل البشري في محيـــط لا ساحل له ولا قرار ، بل أوكل تفسير هذه المعاني إلي الباري ــ

---

(١) الفتوى الحموية لابن تيمية صــ١١٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢٦٥

(٣) الصفات الإلهية صــ ١٢٩ .

جـــل شأنه ـــ وهو من جهة أخري عرف محدودية العارف وقصور وسائل المعرفة (١)

ولعـــل هـــذا ما جعل إمام الحرمين " الجويني " يقول " والذي نرتضيه رأيـــا ، ونديـــن الله بـــه عقداً اتباع سلف الأمة ، فالأولي الاتباع ، وترك الابـــتداع ، والدليـــل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهـــو مستند معظم الشريعة .. فعلي كل ذي دين أن يعتقد تنزيه الرب عن صـــفات المحدثيـــن ولا نخـــوض في تأويل المشكلات ، ونكل معانيها إلي الرب تعالي " (٢)

---

(١) هوامش علي النظامية ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٨ .

مذهب الخلف

الخــــلف هم : الذين جاؤا بعد القرون الثلاثة المفضلة في كما جاء في الحديــث النــبوي ، وقيــل بعد المائة الخامسة وهم أيضاً طائفة من الأئمة والعلماء والثقاة من الفقهاء والمحدثين .

وهــؤلاء يــرون وجوب الإيمان بها للنصوص التي وردت فيها بعض الألفاظ الموهمة للتشبيه ، وينزهون الله ــ تعالي ــ عن الجسمية ولوازمها ، ويؤلــون هذه النصوص بما يتفق مع تنزيهه ــ تعالي ــ عن كل نقص ، وفي إطار قوله ــ جل شأنه ــ " ليس كمثله شيء "

ويقــوم هــذا المذهب علي تحديد المعني المراد من الألفاظ المتشابهة ، وذلك بعد صرفها عن ظواهرها في ضوء قواعد اللغة التي نزل بها القرآن مــن المجــاز أو الاســتعارة أو غيرها ، مع ملاحظة عدم القطع بأن ذلك التأويل هو مراد الله ــ تعالي .

وعــلي ســبيل المثال قوله تعالي : " يا حسرتا علي ما فرط في جنب الله "[١] أي حقه

وقوله تعالي " وهو معكم أينما كنتم "[٢] بمعني العلم .

وفي قوله " يد الله فوق أيديهم " [٣] بمعني القدرة .

وقوله تعالي " وجاء ربك " [٤] بمعني مجيء أمره .

وفي قوله تعالي " تجري بأعيننا " بمعني العناية والرعاية .

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٦ .

(٢) سورة الحديد الآية ٤ .

(٣) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٤) سورة الفجر الآية ٢٢ .

وعلي هذا المنوال وفي كل الصفات الخبرية يتناول الخلف تفسيرها أو تأويـلها بمـا يليق بالله ـ سبحانه وتعالي ـ ويعدون هذه الألفاظ الموهمة للتشبيه مثل : اليد والعين والجنب وغيرهما هي مجاز ظاهر مشهور يفهمه كل عربي دون أدني حاجة إلي إعمال فكر أو محاولة تأويل (١)

ويـري بعـض الباحثين أن كثرة المبتدعين في عصور هؤلاء الخلف جعلـتهم يخـتارون جـانب التأويل ولولا ذلك لما اختاروا جزماً إلا منهج السلف (٢)

والأدهى مـن ذلـك أنه ظهر في الحقل الإسلامي طوائف ينتسبون إلي الإسلام ، وهم بعيدون عنه كل البعد ألا وهم المشبهة والمجسمة .

فقد اشتهر بالتشبيه في القرن الثالث الهجري محمد بن كرام السجستاني ، الـذي كـان يثـبت الصفات لكنه ينتهي فيها إلي التجسيم والتشبيه ، وقد أثـارت آراء ابن كرام هذا طوائف المسلمين الذين يعتقدون التنزيه المطلق لله ـ تعالي

وقـد رأي متكلمي الإسلام أن هذه المسألة في غاية الخطورة ، ذلك أن القـاعدة الأساسـية الـتي يعتمد عليها المسلم في فهم الصفات الإلهية قوله تعالي: " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " .

ومـن هنا : فقد حاول الخلف تأويل النصوص بما يضعها علي صراط واحد من الوفاق مع النصوص المحكمة الأخرى ، التي تقطع بتنزيه الله ـ

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١٦٦/٢ وما بعدها المطبعة الأدبية ـ القاهرة ١٣١٧ هـ . ويراجع كتاب : السلفية رحلة زمنية مباركة للدكتور محمد سعيد البوطي .

(٢) علم الكلام الإسلامي في مواجهة التحديات ص ٥٨ د/ إبراهيم عبد الشافي إبراهيم ط دار الهدي ـ مصر ـ ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ / .

تعالي ــ عن صفات الحوادث .

قضية التأويل :

يجــدر بنا ونحن نستعرض رأي الخلف في هذه المسألة أن نعرج علي قضية التأويل .

إن الــتأويل كمــنهج عقــلي يقصـــد به إبعاد التصورات التي لا تليق بالألوهية .

وهــذا المنهج العقلي يرتبط تاريخياً بالمعتزلة الذين أيقنوا من أن إبعاد التصــورات والصفات والأحوال التي لا تتفق وجلال الألوهية لا يكون إلا عن طريق تأويلها مجازياً .

لقــد وجدوا أن القرآن الكريم والسنة النبوية بهما نصوص ، إذا أخذت حــرفياً قــد تؤدي إلي التشبيه والتجسيم ، وما يكون من ذلك من الصفات والعواطــف والإحساسات البشرية،وإذ أثبت عندهم بالدليل العقلي أن الله ــ تعــالي ــ منزه عن الجسمية والجهة قالوا : لابد من صرف هذه الصفات عن معانيها الظاهرية الحرفية إلي معان أخرى مجازية .

وقــد اســتعانوا في هذا الطريق الشاق بالقرآن نفسه وفي آيات أخر ، وباللغة يجدون فيها ما يساعدهم (١)

ويــري بعــض الباحثين أن السلف والخلف قد اضطروا اضطراراً إلي الــتأويل فــي بعض جمل من الكتاب الكريم والسنة كذلك توفيقاً بينها وبين الآيــات الأخــرى ، وتمشياً مع حكم العقل في إثبات الكمال لله ــ تعالي ــ ونفي أي إيهــام لا يليق به جل شأنه "(٢)

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ٢١٨ .

(٢) سر تأخر العرب والمسلمين للشيخ محمد الغزالي ص ٨٨ ط دار الريان للتراث ١٤٠٧ ــ ١٩٨٧

غيـر أن معرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل مسألة شاقة تحتاج إلى عـالم حاذق ماهر في علوم اللغة ، عارف بأصولها ؛ ذلك أن صرف اللفظ عـن ظاهـره إلى معناه المرجوح لا يجوز بحال من الأحوال إلا عند قيام الدليل القاطع .

ومـن هـنا فقد صاغ علماء الكلام قانوناً وضحوا فيه ما يجوز تأويله مـن النصوص وما لا يجوز ، وبموجب هذا القانون فإن المعاني في الشرع على خمسة أصناف .

١ـ أن يكون المعنى الظاهر من النص هو المراد حقيقة في نفس الأمر ، وهذا الصنف لا يجوز تأويله مطلقاً ، بل يجب الأخذ بالظاهر من الناس جميعاً .

٢ـ أن يكـون المعـنى الظاهر للنص ليس مراداً ، بل هو مثال ورمز للمعـنى المقصود حقيقة ، ولكنه لا يعلم أنه مثال ، ولا لماذا اختير بذاتـه ليكـون مـثالاً ورمزاً لذلك المعنى الخفي إلا بقياسات بعيدة مركبة لا يتوصل إليها إلا بتعلم طويل وعلوم جمه ، لا يقدر عليها إلا الخاصـة مـن الـناس ، وهـذا الصنف لا يجوز أن يأوله إلا الراسخون في العلم وليس لأحدهم التصريح به لسواهم .

٣ـ أن يكـون المعنى الظاهر مثالاً ورمزاً لمعنى آخر خفي ، غير أن هـذا المعـنى الخفي فهمه يسير ، وهذا الصنف ليس لأحد الأخذ بظاهره ، ومن هنا فلا بدمن تأويله والتصريح به للجميع .

٤ـ أن يكـون المعنى الظاهر مثالا ، ولكن يعرف بنفسه أو يعلم قريب أنـه مثال ، ويعلم بعيد لا تستطيعه العامة ومن في حكمهم ـ لماذا هـو مـثال ، وهـذا الصنف يختص به العلماء ، ويؤلونه لانفسهم

خاصـــة ، ويقال للآخرين أنه من المتشابه الذي يجب عدم الخوض فيه .

٥ـــ أنـــه بعـــد التأكد من إجراء التأويل في الأقسام التي يجب أو يجوز تأويلها لابد من ملاحظة الشروط الآتية :

أ ـــ أن نصير إلى التأويل إذا أدت النصوص ـــ في حالة أخذها بحرفها ـــ إلى التجسيم أو جواز النقله أو الكون في مكان ، ونحو هذا مما يستحيل على الله ـــ تعالى .

ب ـــ أن يصـــار إلى التأويل متى قام الدليل العقلي الصحيح على بطلان المعنى الذي يؤخذ من ظاهر النص .

جـــ ـــ إلا نصل بسبب التأويل إلى معنى يهدم أساساً من أسس الشريعة [١]

لـــذا أجمـــع المتكلمون على أن التأويل في أمر لا يتعلق بأصل من أصـــول العقائد ومهماتها لا يحضر صاحبه وأما ما يتعلق من هذا الجـــنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع كان يكون مدفوعا إلى ذلك بغلبات الظنون والأوهام " [٢]

والمتتبع لكتب علماء العقيدة يجد أنهم وضعوا قواعد غلية في الدقة لهـــذه المســـألة ، ذلك أن فتح باب التأويل له أضرار جسيمة ، وقد يذهب البعض إلى التلاعب بالنصوص وفق الهوى .

---

(١) دراسات في الفرق صـــ ٢٢١ـــ٢٢٣ بتصرف .

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي صـــ ١٩٨ ـــ ١٩١ تحقيق د. سليمان دينا ـــ القاهرة وينظر الرجع السابق صـــ ٢٢٣ .

ومـــن هـــنا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام " طريقة التأويل بشـــرطها ، أقـــربها إلى الحـــق ، ويعني بشرطها : أن يكون على مقتضى لسان العرب "(١)

استنتاج وتعليق :

ممـــا لا شك فيه أن مقام الألوهية أجل وأرفع من أن تسبح فيه عقول البشـــر المحدودة ، وهو مقام يصعب علي الإنسان العادي أن يخوض فيه ؛ لأنه فوق طاقته ، فهو أكبر من أن يقاس بالناس أو تدركه الحواس .

إن اللغات من صنع البشر يعبرون بها عما ألفوا في عالمهم المأنوس ، وهـــذه الـــلغات أعجز عن تصوير أمجاد الألوهية ، وآفاق الملأ الأعلى ، ومن هنا فقد أسعفنا الوحي بما يتناسب مع أذهاننا وفهمنا (٢)

ونحن إزاء هذه القضية التي شغلت علماء العقيدة والتفسير يمكننا القول أن رأي الســـلف ـــ رضـــي الله عنهم رأي تنزيهى كأكمل ما يكون التنزيه ذلـــك أنه أضاف الصفات إلي الذات الإلهية كمالاً وجلالاً ، ورفعه وبهاءاً ، إنـــه الموقف الذي جمع بين أطراف القول المحكم " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير "(٣)

والـــذي نعـــنيه بموقف السلف هو ذلك الموقف الذي يتمثل في السكوت وعدم الخوض في هذه الصفات ، وإمرارها كما جاءت .

الموقف الذي لخصه الإمام الجويني في ثلاث نقاط :

أ ـــ تنزيه الرب ـــ تعالي ـــ عن صفات المحدثات .

---

(١) المسايرة للكمال بن الهمام صـــ ٣٧ ـــ مطبعة السعادة ـــ مصر .

(٢) راجع : سر تأخر العرب والمسلمين ص ٩١ وما بعدها .

(٣) هوامش علي النظامية ص ١٩٢ .

ب ـــ عدم الخوض في تأويل هذه النصوص .
جـــ ـــ الاعتقاد بأن لها معان حقيقية يعلمها الله ـــ تعالي ـــ ورسوله .

إنـــه انكفاف عن التأويل البشري ، وإسناد للعلم بالصفة إلي الموصوف بها ، وسكينة في الصدر ، وبرد في القلب وطمأنينة في الوجدان "(١)

أمـــا مـــن يحمـــل المتشابهات في الصفات علي ظواهرها مع قوله أنها باقيـــة علي حقيقتها ، فهذا ليس بمذهب سلف ولا خلف ، ولم يقل بهذا أحد من المسلمين ، ذلك أن هذا الرأي يؤدي في النهاية إلي التشبيه والتجسيم ، إذ أن إثـــبات المتشابهات علي حقائقها يستلزم الحدوث وأعراض الحدوث ، وهذا مستحيل علي الباري ـــ عز اسمه .

يجب أن تفهم هذه الحقيقة جيداً حتى لا يساء الفهم بموقف السلف .

لقـــد كان منطلقهم قوله تعالي : " وما يعلم تأويله إلا الله " فهو سبحانه اخـــتص ذاتـــه العـــليه بمعـــرفة المراد من هذه الآيات المتشابهة وما علي العارفين إلا أن يقولوا في تضرع وخشوع:" آمنا به كل من عند ربنا "

روي عـــن أبـــي بكـــر ـــ رضي الله عنه أنه قال : " العجز عن درك الإدراك إدراك ، والـــبحث في ذات الله إشراك ، سبحان من لم يجعل سبيلا إلـــي معرفته إلا العجز عن معرفته ، ولا ينبغي أن تتوهم فيه كيف ، لأن الكيف عنه مرفوع "(٢)

وإذا كـــان بعـــض العـــلماء قـــد تعرض لتأويل المتشابهات فإن هناك الظـــروف الـــتي دعت إلي هذا الاتجاه ـــ ومن أبرزها جنوح بعض الفرق

---

(١) هوامش علي النظامية ص ١٩٠ ، ١٩٣ .
(٢) نقلا عن كتاب دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٩٠ .

الضـــالة إلي التشبيه والتجسيم أو الفهم الخاطئ من بعض العوام ، الذي لا يليق بمقام الألوهية ، وقد أفاض الإمام الغزالي في هذا الموضوع (١)

وعـــلي كـــل حـــال فـــإن علماء المسلمين الذين ولجوا هذا الطريق ، وضـــعوا له شروطاً دقيقة غاية الدقة ـــ كما أسلفنا ـــ ولئن كانوا مخطئين فـــي هـــذا المسلك ، فهم مجتهدون ضمن شروط الاجتهاد المقبول ، ولهم الأجر علي اجتهادهم الذي بذلوه ليصلوا إلي ما ينشدون من حق (٢)

لكن المشكلة التي نواجهها هي امتلاء كثير من الكتب بعبارات التفسيق والتجهيل والغباء لهؤلاء العلماء ، وهي قطعا كتب في العقيدة الإسلامية .

ولعمـــري كيـــف تـــترجم العقيدة إلي بذاءات واتهامات لبعض العلماء المشـــهود لهـــم بالبنان ؟ والمعلوم أن العقيدة الإسلامية لها ترجمة سلوكية وأخلاقيـــة لا ترقي إليها أي عقيدة أخرى ، وهذه الترجمة الأخلاقية نتعامل بها حتى مع غير المعتنقين لهذه العقيدة ، فكيف نتطاول علي علماء الإسلام ـــ لمجرد الاختلاف في الرأي ـــ بالسب والإهانة والتجريح ؟

إن مـــن التســـرع أن يـــتهم المسلم أخاه بالخروج من الدين أو يستخدم العبارات الفظه كأداة للإقناع .

وأعـــود فأقول: إن غاية السلف والخلف ـــ كما هو واضح ـــ واحدة ألا وهـــي تـــنزيه الله ـــ تعالي ـــ رغم اختلاف المسالك ، لأن المآل فيهما إلي الله ـــ عـــز وجل ـــ المنزه عن جميع صفات النقص ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " (٣)

---

(١) راجع كتابه الاقتصاد في الاعتقاد .
(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٢٢١ .
(٣) كبرى اليقينيات الكونية ص ١٤١ .

ونحـــن في النهاية نري أن طريق التفويض هو الأولي والأسلم ، ونتفق مـــع كبار الأئمة والعلماء الذين يرون الوقف علي قوله تعالي : " وما يعلم تأويله إلا الله "

نعـــم إنه الطريق الأسلم ، والحصن الآمن ، فالحق ــ سبحانه ــ ليس كمـــثله شــــيء وهـــو " لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " وليكن مجال البحث والنظر والتفكر هو خلق السموات والأرض وما بينهما ، هو الأنفس والآفاق وهذا هو هدى الرسول الكريم ــ صلي الله عليه وسلم [١]

(١) العقيدة في ضوء القرآن الكريم ص ٧٩ .

قضية الكلام الإلهي

لحظات تأمل (١)

إن الله ــ تعــالي ــ خــلق الأرض " ثم استوى إلي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أيدنا طائعين "

وعهد ــ سبحانه ــ إلي ملائكته المدبرات أمراً بالقيام علي شئون خلقه مــن إحياء وإماتة ، وخلق ، ورزق وغيث ، وخسف ، ورفع ، وخفض ، وغير ذلك .

وعهــد إلي رسله من البشر بتبليغ الرسالة إلي خلقه كل ذلك إنما حدث بهذه الصفة المباركة ألا وهي صفة الكلام .

كــم يســتخدم الإنســان من الكلمات والأحاديث أثناء حديثه وقراءتــه وكتابته ؟

وكم لغة يتكلم بها البشر ؟

وكم لغة تتكلم بها مخلوقات الله ــ تعالي .

كــل هذا يجعلنا نقف وقفة تدبر وتأمل ، وإذا كان الأمر كذلك فما بالنا بكــلام الحــق ــ تعــالي ــ الذي خلق الكائنات ، العليم بكلماتها وألفاظها ولغاتها، وهو المدبر لشئونها .

" ولــو أنمــا فــي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله "(٢)

" قــل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً "(٣)

---

(١) عقيدتنا ص ١٧٢ .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٧ . (٣) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

بعد هذا التأمل نأتي إلي تعريف صفة الكلام والاستدلال عليها .

فالكلام صفة تدل علي جميع المعلومات .

الدليل العقلي علي ذلك :

أنـــه تعـــالي لـــو لم يكن متصفا بهذه الصفة لا تصف بضدها واتصافه بضدها نقص ، وهو باطل ، فثبتَ اتصافه ــ تعالي ــ بصفة الكلام .

الدليل النقلي :

قوله تعالي " وكلم الله موسى تكليما " [١]

وقولـــه ســـبحانه " ومـــا كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذن ما يشاء " [٢]

هـــذا ونـــود أن نشير إلي أنه لا خلاف بين أهل الملة في أن الحق ــ تعالي ــ متكلم ، لكن الخلاف الذي حدث هو في قضية القدم والحدوث .

ونشير بإيجاز إلي آراء الفرق المختلفة في القضية :

١ ــ الحنابـــلة : وقبل أن نورد رأي الحنابلة ، يجب أن نفرق بين رأي الحنابـــلة التي نسبت ــ زوراً ــ إلي الإمام أحمد بن حنبل ــ وهم قوم أغرقوا في التشبيه ــ وبين رأي الإمام أحمد نفسه [٣]

فالإمـــام أحمد يري أن كلام الله ــ تعالي ــ هو المسموع المقروء وأنه غير مخلوق ولا محدث [٤]

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥١ .

(٣) انظـــر كـــتاب دفـــع شـــبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلي الإمام أحمد لتقي الدين الحصني .

(٤) يـــراجع في ذلك الرد علي الزنادقة والجهمية ضمن كتاب عقائد السلف ص ٨٧ ــ ٩٢ ــ تحقيق د/علي سامي النشار وجمعة الطالبي ــ منشأة المعارف ــ الإسكندرية .

أمـــا الحنابـــلة فقد ذهبوا إلي أن القرآن الكريم بحروفه وأصواته ؛ حـــتى بـــالغ بعضهم فقال : إن الجلد والغلاف قديمان ، فضلاً عن المصحف .

٢ ـــ الكـــرامية : يـــتفقون مـــع الحنابـــلة فـــي أن كلامه تعالي حروف وأصـــوات غيـــر أنهم يزعمون أن هذه الحروف والأصوات قائمة بذاته ـــ تعالي ـــ لتجويزهم قيام الحوادث بذات الله تعالي عن ذلك علواً كبيراً .

٣ ـــ المعـــتزلة : ذهب المعتزلة إلي أن القرآن الكريم كلام الله ـــ تعالي ـــ وهـــو منـــتظم مـــن الحروف والأصوات وهي حادثة ، والكلام الإلهي عرض يخلقه الله في الأجسام علي وجه يسمع ويفهم معناه .

٤ ـــ الأشاعرة : يري الأشاعرة أن الكلام صفة من صفات الله ـــ تعالي ـــ الأزلية ، والقرآن كلام الله ـــ تعالي ـــ وهو قديم غير مخلوق . والأشـــاعرة يتفقون مع المعتزلة في أن الحروف والأصوات حادثة ، إلا أنهـــم يخالفونهم في أن هذه الأصوات والحروف ليست كلام الله ـــ تعـــالي ـــ وإنما هي معبرة عن كلام الله ، الذي هو المعني النفسي القديم القائم بذاته تعالي (١)

سبب الخلاف في المسألة :

يرجع سبب الخلاف في المسألة إلي وجود قياسين متعارضين هما :

١ ـــ أن كلام الله ـــ تعالي صفة له ، وكل ما هو صفة لله ـــ تعالي

---

(١) انظـــر : أصول الدين للبغدادي ص ١٠٦ ـــ ١٠٨ ، الإرشاد للجويني ص ٩٩ ـــ ١٣٧ ، شرح المواقف (الموقف الخامس) ص ١٤٦ ـــ ١٦٤ تحقيق د/ أحمد المهدي ومن كتب المعتزلة : المغني للقاضي عبد الجبار ـــ الجزء السابع والذي خصصه لهذه المسألة .

فهو قديم ، فكلام الله ــ تعالي ــ قديم .

٢ ــ كلام الله ــ تعالي ــ مركب من حروف وأصوات مترتبة ومتعاقبة في الوجود ، وكل ما هو كذلك فهو حادث ، فكلام الله حادث .

ولمـــا رأي المختلفون التعارض في النتيجتين ، اضطروا إلي القدح في أحد القياسين [١]

قضية القول بخلق القرآن :

يقول صاحب جوهرة التوحيد :

ونزه القرآن أي كلامـــــه عن الحدوث واحذر انتقامــــــــه

فكل نص للحـــــدوث ولا احمل علي الذي قـــــــــــد دلا

عرض تاريخي موجز للقضية :

تعـــد هـــذه القضـــية من أبرز القضايا الفكرية التي دخلت في مضمار العقيـــدة ، وقـــد شـــغلت المسلمين ردحاً من الزمن ، وكانت مثلاً صارخا للتعصـــب وتـــباين الآراء ، التي من أجلها تفرقت الصفوف ، وبدا واضحاً عنصر الصراعات المذهبية ، بل وصل النزاع إلي حد إراقة الدماء .

والحقيقـــة أن القـــول بفكرة خلق القرآن ــ أساساً ــ من صنع اليهود ، ولعـــل هـــذا ما يؤكد لنا كل فتنة تحدث بين المسلمين نجد وراءها أصابع يهوديـــة وخيـــر دليل علي هذا ما فعله عبد الله بن سبأ ، فقد قام بمحاولات ماكـــرة الهدف منها : تقويض العقيدة الإسلامية من الداخل ، مما يؤدي إلي تمزيق صفوف المسلمين وتشكيكهم في عقيدتهم .

وقد ظهرت فتنة القول بخلق القرآن في أواخر الدولة الأموية وعلي يد رجل اسمه : الجعد بن درهم ، وهو أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق ،

---

(١) انظر : المراجع السابقة .

وقـــد ورث هـــذه الفكـــرة عن إيان بن سمعان الذي أخذها من طالوت بن أعصم اليهودي [١] .

وقد قتل الجعد بن درهم هذا علي يد خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحي بالكوفة سنة ١١٨ هـــ وذلك في أواخر عهد الدولة الأموية بحجة أنـــه يقـــول : " ما كلم الله موسي تكليماً ، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا " وقد استنتجوا من قوله هذا أن القرآن مخلوق [٢]

وفـــي يـــوم عيد الأضحى صعد خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة علي المنبر وخطب الناس ثم قال :

أيهـــا الـــناس ضـــحوا تقبل الله منا ومنكم ، فأني اليوم أريد أن أضحى بـــالجعد بن درهم ، وقد بين السبب في ذلك ، ثم نزل من علي المنبر وقام بذبحه فعلا [٣]

فتنة خلق القرآن التي أثارها المعتزلة :

كان المعتزلة يرون أن الاعتقاد بقدم القرآن إلي جانب قدم الله شرك ، ذلك أنهم ينكرون القدم إلا علي الذات الإلهية .

وقد كان بطل فتنة خلق القرآن هو الخليفة المأمون الذي تأثر بالمعتزلة ، وتبـــني أراءهـــم ، وفرضها علي الناس فرضاً ، وبدأ بقضاته وعماله ، وجعل يطلب إليهم الإيمان بخلق القرآن ، ومن لا يؤمن بذلك يعزل فوراً ، وقد أرسل إلي نائبة في بغداد إسحاق بن إبراهيم أن يجمع القضاة والفقهاء

---

(١) ضـــحي الإسلام ١٦٧/٣ أحمد أمين ط ٩ ــ النهضة المصرية ١٩٥٤ ، وهو ناقل عن سرح الجفون .

(٢) ضحي الإسلام ١٦٧/٢ .

(٣) راجـــع البداية والنهاية لابن كثير ٢٦/١٠ تحقيق علي نجيب عطوى وآخرين ــ ط ٣ بيروت ١٩٨٧ م .

والمحدثيـــن والمفتين وينذرهم بالعقوبة إن لم يستجيبوا للقول بخلق القرآن ، وظل الأمر كذلك إلي أن وصل الحكم إلي المعتصم ثم في عهد ابنه الواثق الـــذي قتل بعض معارضي الفكرة ، وظل الأمر علي هذا الاضطهاد حتى جـــاء الخليفة المتوكل ، الذي فك قيود الفقهاء وانتصر لهم ضد المعتزلة ، فقويت شوكة أهل السنة بمناصرته ومساندته .

وبمجيء المتوكل انتهت المحنة ، التي كانت ولاشك ضرباً من الهوس المذهـــبي ، الذي لا يستحق أبداً كل هذا التعصب والغلو ، والذي لا علاقة له بعقيدة الإسلام من قريب أو بعيد (١)

وممـــا يؤســـف ويحز في النفس أن هذه الفتنة العمياء سالت فيها دماء زكيه ، وجلد فيها أئمة كرام ، وفي مقدمة من اكتوى بنار فتنة خلق القرآن الإمـــام الجـــليل أحمـــد بن حنبل ، الذي تحمل النصيب الأوفى من الأذى والقـــدر الأكبر من الصمود أمام جهالة مشعلي هذه النار ، وكان ـــ رحمه الله ـــ كـــالطود الشامخ الذي تكسرت علي قمته وجانبيه رياح الانحراف ، وكان يقاوم هذا كله بالبرهان والحجة .

وعلي أي حال فقد واجه الإمام أحمد هذه المحنة بقلب المؤمن وعزيمة الشـــجاع ، وصـــبر المـــنيب ، وســـلاح العالم ، وكان له النصر في نهاية المعـــركة ، وكان للعقيدة السلام علي يديه ، فقد قاد السفينة بثبات وإيمان ، حتى لقي ربه راضيا مرضيا (٢)

---

(١) إســـلام بـــلا مذاهـــب ص ٣٩٨ وما بعدها د/ مصطفي الشكعة ، الدار المصرية اللبنانية ط ١ ، ١٩٩٤ م .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٩ وما بعدها .

استغلال الكيد الصليبي للقضية :

بعـــد أن عجز التطهير العرقي والغزو الدموي لأعداء الإسلام اندفعوا للتســـلل إلـــي غزو صامت هدفه التشكيك في الإسلام ، إرواء لأحقادهم ، وبغضاً للعقيدة الإسلامية وكراهية للمسلمين .

ومن هذه المسائل : قضية خلق القرآن .

فقـــد روي عـــن " يوحـــنا الدمشقي " أنه كان يلقن بعض المسيحيين ، ليجادلوا المسلمين ، فيقول : إذا سألك المسلم : ماذا تقول في المسيح ؟ فقل : إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم : بم سمي المسيح في القرآن ؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم ، فإنه سيضطر إلي أن يقول : إنمـــا المســـيح عيسي ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلي مـــريم وروح منه " (١) فليسأله عن كلمة الله وروحه ، أمخلوقه هي أم غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن كلمة ولا روح ، فإن قلت ذلك فستفحم المسلم ؛ لأن من يري هذا الرأي زنديق عند المسلمين (٢)

ويـــري بعـــض الباحثين أن المعتزلة إنما ذهبوا إلي ذلك ؛ لأنهم كانوا يرون أنه هو الحق بقطع النظر عن كل شيء ، ولو كانوا يعلمون أن الحق مـــا يـــراه جمهور المسلمين لما تمسكوا برأيهم هذا وإن تألبت عليهم جميع رجال الكنيسة (٣).

---

(١) سورة النساء الآية ١٧١ .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية – محمد أبو زهرة ص ٢٦٠ نقلاً عن : أصول الدين الإسلامي ص ١٢٧ .

(٣) كبرى اليقينيات الكونية ص ١٢٨ هامش .

مع صاحب الجوهرة :

لاشك أن صاحب جوهرة التوحيد قد بين القول الفصل في المسألة بادئاً بعبارة التنزيه ، أي أنه يجب علي كل مسلم أن ينزه كلام الله ــ تعالي ــ عـــن الحوادث خشية انتقام الله وعذابه وما أوهم ظاهره الحدوث أو الخلق فيجب أن يحمل علي اللفظ الذي قد دلا وهو تلك الصفة القديمة القائمة بذاته تعالي .

ونـــود أن نشـــير هنا إلي أن مسألة الكلام النفسي التي قال بها الأشاعرة يرجعها المعتزلة إلي صفة العلم إن كان المدلول خبراً ، وإلي صفة الإرادة إن كان أمر ونهياً (١)

وعـــلي كل فالمعتزلة يقولون بحدوث الكلام زعماً منهم أن من لوازمه الحروف والأصوات ، وذلك مستحيل علي الله ــ تعالي .

وقـــد رد عليهم الأشاعرة بأن هذا القول لا ننكره بل نقول به ، ونسميه كلامـــاً لفظيـــا ، ونعترف بحدوثه ، وعدم قيامه بذاته تعالي ، ولكننا نثبت وراءه الكلام النفسي ، الذي نعبر عنه بالألفاظ .

وواضـــح أن الخـــلاف الذي قام قديماً بين المعتزلة والأشاعرة ينحصر في تسمية الكلام النفسي فالمعتزلة يقولون بأن الكلام النفسي لا يسمي كلاماً وإنمـــا هـــو راجع إلي صفة الإرادة إن كان المدلول أمراً أو نهياً ، وراجع إلـــي صـــفة العـــلم إن كان المدلول خبراً ، أما أهل السنة ــ أو الأشاعرة بصفة خاصة ــ فيسمونه كلاماً نفسيا ، ويعنون بذلك الصفة الأزلية القديمة القائمة بذاته ــ جل شأنه ــ كسائر الصفات (٢)

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٢) أصول الدين الإسلامي ص ١٤٨ .

وهـذا الخـلاف ـ في نظري ـ لا يستدعي علي الإطلاق هذا النزاع الطويل الذي وصل إلي ذروته ، يقول شارح الطحاوية :

" وبالجملـة : فكـل ما تحتج به المعتزلة مما يدل علي أنه كلام متعلق بمشـيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء ، وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء فهو حق يجـب قبوله ، وما يقوله من يقول : إن كلام الله قائم بذاته وأنه صفة له ، والصـفة لا تقـوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به ، فيجب الأخـذ بمـا فـي قول كل من الطائفتين من الصواب ، والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما " (١)

تعقيب عام :

الذي يتصفح كتب التراث العقدي يجد أن المعتزلة كان لهم نفس طويل وعميـق فـي مسـألة خلق القرآن ، وقد خيل إليهم أنهم انتدبوا للدفاع عن العقيـدة الإسلامية ، وقد بدا التكلف الواضح في التشبث بالآراء والانتصار لهـا من قبل المعتزلة بل وخصومهم أيضا ، وهذا يحدث دائماً حينما تكون المعـركة فـي عـنفوانها ، ولو حددت مواضع الاختلاف لانتهي النزاع ، وحسـمت الخلافـات ، غيـر أن هذا لم يحدث إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وهدأت الأفكار (٢)

إن المتصفح للقرآن الكريم يجد أن الصور والأساليب تعددت لتثبت لكل ذي عقل سليم أن الحق ـ سبحانه ـ متصف بصفة الكلام ، وأنه جل شأنه

---

(١) شـرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ١٧٣ تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

(٢) ضحي الإسلام ٣/٣٤ ـ مطبعة النهضة المصرية .

قــد كــلم بعــض رسله وأنبيائه كلاما مباشراً ، وبعضهم كلمه عن طريق الوحي ، وما ذلك إلا لأنه ــ جل شأنه ــ قد اتصف بصفة الكلام .

أمــا الأراء الشــاذة والغريبة كرأي الكرامية ومن لف لفهم فهؤلاء لا وزن لهم ولا حساب في العقيدة الإسلامية .

المستحيل في حقه تعالي

يجب علي كل مكلف من المسلمين معرفة الصفات الواجبة لله ــ تعالي ــ والمستحيلة والجائزة في حقه تعالي .

وإذا كان الحق ــ سبحانه ــ قد اتصف بصفات الكمال الثبوتيه الواجبة لــه تعــالي ، فإن هناك أموراً تترتب علي الإيمان بهذه الصفات ومن هذه الأمور: المستحيل في حقه تعالي .

وقد لخص هذه المسألة صاحب الجوهرة قائلاً :

ويستحيل ضد ذي الصفات في حقه كالكون في الجهــــات

بمعــني أنــه يســتحيل عــلي الله ــ تبارك وتعالي ــ أضداد الصفات الواجبة له كالقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر ...

وقــد ذكر علماء العقيدة في كتبهم هذه المستحيلات وتناولوها بالتفصيل ، حــتى تســلم العقيدة من كل شائبة،ومن أهم هذه المستحيلات التي نبهوا إليها :

١ ــ أن الله ــ ســبحانه ــ ثــبت له وجوب الوجود ، ويستحيل عليه ما ينافي الوجود وهو العدم .

٢ ــ ثبت لله ــ تعالي ــ وجوب القدم ، فيستحيل عليه الحدوث .

٣ ــ ثــبت لله ــ تعالي ــ وجوب البقاء ، ويستحيل عليه ما ينافيه وهو الفناء .

٤ ــ ثبت له تعالي ــ وجوب مخالفة الحوادث ويستحيل عليه المماثلة أو المشابهة للحوادث بكل صورها .

والمماثلة للحوادث كالجرم [١] والعرض [٢] والجهة ، إلا أن بعـــض

---

(١) الجرم : ما حل في فراغ . (٢) العرض : ما لا يقوم بنفسه .

العــلماء قالوا:إن العامي إذا اعتقد جهة العلو لا يكفر ، لأن جهة العلو فيها شــرف ورفعــه ، أمــا إن اعتقد جهة السفل فإنه يكفر ، لأن فيها خســة ودناءة[١]

ويستحيل عليه تعالي ـــ أن يحل في مكان [٢]

---

(١) شرح البيجوري علي الجوهرة ص ١٠٧ ـــ المطابع الأميرية ١٩٧١م .

(٢) الحلول نوعان :

الحلول السرياني وهو : عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلي أحدهما إشارة إلي الآخر كحلول ماء الورد في الورد ، فيسمي الساري حالا والمسري فيه محلاً .

الحــلول الجواري وهو عبارة عن كون أحد الجسمين طرفاً للآخر كحلول الماء في الكوز .

والحلول بنوعيه مستحيل في حقه تعالي وذلك لما يلي :

١ ـــ لأن الحــال تابع لما يحل فيه ويستحيل أن يكون الله ـــ تعالي ـــ تابعا في وجوده لشيء ، لأن هذا يتنافى مع وجوب الوجود الثابت له سبحانه .

٢ ـــ إن الحال في الشيء محتاج إلي ذلك الشيء ، ويلزم علي ذلك أن يكون محتاجاً ، والاحتياج دليل الإمكان ، وهذا مستحيل في حقه تعالي .

٣ ـــ أنه لو حل سبحانه في محل فإما أن يكون مستغنياً بذاته عن المحل أو محتاجاً إليه

فــإن كــان غنياً بذاته عن المحل فيستحيل أن يعرض أو يطرأ له ما يجعله محتاجاً إلــي المحــل ؛ لأن ما بالذات لا يتغير ، أما إن كان محتاجاً بذاته إلي المحل فيلزم إلي جــانب الاحــتياج الذي يترتب عليه إمكان الواجب ـــ قدم المحل الذي يحل فيه ، وهذا محال ، لأنه لا قديم إلا الله تعالي .

هذه الأمور وغيرها محالة علي الحق ـــ تعالي ـــ يضاف إلي ذلك :

١ ـــ أنه لو حل في جسم فتكون ذاته قابلة للحلول في أي جسم ومعلوم أن الأجسام كلها متســاوية ومتماثلة لتركبها من الجواهر الفردة عند المتكلمين أو الهيولي والصورة عند الفلاســفة ، وحينئذ إما أن يحتاج إلي مخصص يخصص حلوله في بعض الأجسام دون بعض ، فإن احتاج يلزم إمكانه وهو باطل ، وإلا يكون ترجيحاً بدون مرجح وهو باطل

ويستحيل عليه تعالي أن يكون في زمان ، إذ لا تنطبق عليه حركات الأفلاك .

ويستحيل أن يقال : هو تعالي في ليل أو نهار أو في سنة كذا .

ويستحيل أن تتصف ذاته بالحوادث كالقدرة الحادثة أو الإرادة الحادثة .

ويستحيل أن تتصف ذاته تعالي بالحركة أو السكون .

ويستحيل أن يتصف جل شأنه بالصغر أو الكبر .

أما ما وصف به سبحانه نفسه في كتابه العزيز بأنه " كبير متعال " فمقصود به التأكيد علي عموم قدرته وعظمته .

ويستحيل أن تتصف أفعال الله وأحكامه بالأعراض وليس معني هذا أنها ليست لحكمة ؛ بل هي لحكمة يعلمها هو .

٥ ــ ثبت لله ــ تعالي ــ وجوب القيام بالنفس ، فيستحيل أن يكون صفة تحتاج إلي محل تقوم به ، كما يستحيل أن يكون محتاجاً إلي مخصص يخصصه بحال دون حال ، إذ كل ذلك يتنافى مع القيام بالنفس .

٦ ــ ثبت لله ــ تعالي ــ الوحدانية فيستحيل أن يكون له شريك يماثله في ذاته ، ويستحيل أن تكون ذاته مركبة من أجزاء ، كما يستحيل أن يكون لأحد صفة أو صفات تماثل صفاته تعالي ، ويستحيل أن يكون معه مؤثر آخر في اختراع فعل من الأفعال .

(=) (٢) أن يكون موصوفاً بأنه حال في غيره ، إما صفة كمال أو لا ، فإن كان صفة كمال يلزم أن يكون ناقصاً وحاش لله ــ وإن لم يكن صفة كمال بأن يكون صفة نقص فحينئذ يجب أن ينزه الله عنه ، انظر شرح المقاصد للتفتازاني ٢/٦٩ وانظر : بحوث في الإلهيات من كتاب المواقف ص ٨٣ وما بعدها د/ محمد عمر محمد حسن ط ١ دار الطباعة المحمدية ١٤١٧ هـ ــ ١٩٩٦ م .

٧ ـــ وقد ثبت لله ـــ تعالي ـــ القدرة ، فيستحيل عليه العجز .

٨ ـــ وثـــبت لله ـــ تعالي ـــ الإرادة فيستحيل عليه الإكراه أو الذهول أو الغفلة ، أو عدم الاختيار .

ويستحيل أن توجد الأشياء عن الله ـــ تعالي ـــ بالطبع ـــ كما يقول بذلك بعض الفلاسفة ؛ لأن ذلك يتنافى مع الاختيار .

٩ ـــ وثـــبت لله ـــ سبحانه ـــ العلمّ : أي الانكشاف التام للمعلومات علي وجـــه الإحاطة والشمول ، فيستحيل عليه ـــ جل شأنه ـ الظن والشك والوهم والنوم ، وكل معاني الجهل .

١٠ـــ وثـــبت لله ـــ تعالي ـــ وجوب الحياة ، فيستحيل عليه ما ينافيهـــــا (الموت)

١١ـــ وثـــبت لله ـــ عـــز وجـــل ـــ السمع والبصر فيستحيل عليه العمي والصم .

١٢ـــ وثـــبت له ـــ جـــل شـــأنه ـــ الكـــلام فيستحيل عليه ما ينافيه وهو الخرس والبكم والعي والسكوت .

نماذج من القرآن الكريم والسنة المطهرة

قـــال تعـــالي : " وتوكـــل عـــلي الحي الذي لا يموت "(١) ونفي الموت يتضمن كمال الحياة .

ويقول سبحانه : " لا تأخذه سنة ولا نوم " (٢) ونفي ذلك يتضمن كمال حياته وقيوميته .

وقال تباركت أسماؤه " ولا يظلم ربك أحداً " (٣) ونفي الظلم عن الحق

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥ . (٣) سورة الكهف الآية ٤٩ .

سبحانه سيضمن كمال العدالة .

وقال تعالي : " ولا يؤدوه حفظهما " [١] دلالة علي كمال القدرة .

وقـــل عـــز اســـمه : " لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض " [٢] دلالة علي كمال علمه .

وقـــال جـــل جلالـــه : " لا تدركـــه الأبصار "[٣] ، وذلك لكمال جلاله وعظمته وكبريائه .

ومن السنة النبوية :

ــ قوله صلي الله عليه وسلم : " إن الله لا مستكره له " [٤]

ــ قوله صلي الله عليه وسلم : " إن الله لا يتعاظم عليه شيء " [٥] .

ــ قوله صلي الله عليه وسلم : " إن الله لا يحب الفحش والتفحش " [٦]

ــ قوله صلي الله عليه وسلم : " إن الله لا يظلم المسلم حسنة " [٧]

ــ قوله صلي الله عليه وسلم : " إن الله لا ينام " [٨]

وبعد :

فإن من الواجب علي كل مكلف أن يعتقد اعتقاداً جازماً ــ كما أوضحنا في البداية ــ بأن الله منزه عن كل نقص ، وهو سبحانه متصف بكل كمال

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة سبأ الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

(٤) رواه أحمد

(٥) رواه مسلم

(٦) رواه مسلم

(٧) رواه مسلم

(٨) رواه مسلم

يليق به تعالي .

والمتصـــفح لكتب العقيدة الإسلامية يجد أن علماء التوحيد بذلوا جهدهم فـــي بـــاب التنزيهات وإن كانت قد اختلفت طرقهم في عرضها ، فبعضهم يجمـــل ، وبعضـــهم يفصل ، وبعضهم يلتزم بما ورد في الكتاب والسنة ، وبعضـــهم يستعمل المصطلحات العلمية في التعبير عنها ، لكنهم في النهاية يجمعـــون علي أنه يجب تنزيه الحق تبارك وتعالي عن كل ما لا يليق به ، وأنه منزه عن كل صفات الحوادث (١)

ولا شـــك أن ثمرة هذا الاعتقاد ــ عند أهل الحق ــ هي وجود تعظيم فـــي القـــلب ، يمـــنع مـــن التعطيل والتشبيه ، ولا يكفي في القضية مجرد الاعـــتقاد القلـــبي ، بـــل يجـــب أن يضاف إلي ذلك وجود هذا التعظيم في الوجدان ، إنه تعالي أعظم من كل عظيم بوجوده الدائم أزلاً وأبداً ، وأعظم مـــن كل عظيم في علمه وقدرته وقهره وسلطانه ونفاذ حكمه ، وأعظم من كـــل عظيـــم في أن العقول لا تصل إلي كنه صمديته ، والأبصار لا تحيط بسرادقات عزه (٢)

وإذا كـــان علماء التوحيد يعقدون أبواباً في كتبهم لهذه التنزيهات فإنهم بذلـــك يوصدون الأبواب أمام كل تطاول علي مقام الألوهية السامي ، ذلك التطاول المزود بالتصورات البشرية ، كهذه التصورات اليهودية والمسيحية وغيرها .

وأود هـــنا أن أنقـــل نموذجاً لواحد من أعلام الإسلام الذين قيضهم الله لخدمة العقيدة ، ألا وهو الإمام أبو حامد الغزالي حيث يقول في كتابـــــه "

---

(١) عقيدتنا ص ١١٦ .

(٢) هوامش علي النظامية ص ١٧٣ .

" إحياء علوم الدين " عن الله تعالي :

" ... إنه في ذاته واحد لا شريك له ، فرد لا مثيل له ، صمد لا ضد له ، منفرد لا ند له ، وأنه واحد قديم لا أول له ، أزلي لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ؛ أبدي لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له،لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال ، لا يقضي عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد ، وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، وأنه ليس بجسم مصور،ولا جوهر محدود مقدر،وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام،وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ولا تحله الأغراض ، بل لا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ، ولا هو مثل شيء .

وأنه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ، ولا تكشفه الأرضون ولا السموات ، وأنه مستو علي العرش علي الوجه الذي قاله وبالمعني الذي أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكين والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته ، وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلي تخوم الثري فوقية لا تزيده قرباً إلي العرش والسماء ، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثري ؛ بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثري ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلي العبد من حبل الوريد ، وهو علي كل شيء شهيد" (١)

(١) إحياء علوم الدين ٨٩/١ ط الحلبي .

الجائز في حقه تعالي

قال صاحب الجوهرة :

وجائز في حقه ما أمكنـــــا إيجاداً إعداما كرزقه الغنــــي

مـــن المعـــلوم أن الجائز هو : ما يصح في العقل وجوده تارة وعدمه أخرى .

والله ســـبحانه فعال لما يريد ، يجوز في حقه فعل كل ممكن أو تركه ، هـــو الفـــاعل المختار المتصرف في ملكه كيف يشاء ، لا يشاركه أحد في التصرف ، ولا يحول دون تصرفه أحد .

وأفعالــــه سبحانه ــ جميعاً ــ جارية وفق الحكمة والعدل والصواب ، سواء علمنا منها الحكمة أو جهلناها (١)

أن الجائز لا يقع بنفسه ، فكفتا الوجود والعدم فيه متساويتان ، لا ترجح لإحداهمـــا إلا بتأثير صانعه ، فالافتقار في الجائز ذاتي ، افتقار في الإيجاد ، وافـــتقار في الإمداد ، ويستحيل ــ في العقول ــ أن يكون صانعه جائزاً مـــثله ، وإلا لكـــان مفـــتقراً مثله ، ويتسلسل الفقراء إلي غير نهاية ، ولو تسلســـل الفقراء إلي غير نهاية فمن ذا الذي أمدهم إيجاداً وإمداداً إلا الغني بنفسه (٢)

هـــذا وأفراد الجائز كثيرة منها علي سبيل المثال لا الحصر : الخلق ، والـــرزق ، والإماتــــه ، ، والإحيـــاء ، والصـــحة ، والإسقام ، والثواب ، والعقـــاب ، والقضـــاء ، والقدر ، وبعثة الرسل ــ عليهم السلام ــ ورؤية المؤمنين لله بلا كيف ولا انحصار ...

---

(١) شرح السنوسية للبيجوري ــ القاهرة ــ ١٣٦٩ هـــ .

(٢) هوامش علي النظامية ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

وقد أشار صاحب الخريدة إلي الجائز في حقه تعالي بقوله :

وجائز في حقه الإيجاد والترك والاشقاء والاسعـــــاد [1]

(١) الخريدة البهية نقلاً عن الصفات الواجبة المستحيلة والجائزة ص ١٩٤ .

خلق الأفعال الاختيارية

قال صاحب الجوهرة :

فخالق لعبده وما عمل ....

يـــري أهل السنة:أن الخالق لأفعال العبيد الاضطرارية والاختيارية هو الله وحـــده ، وليس للعبد ولا لقدرته الحادثة ــ التي هي بخلق الله تعالي ــ أدنـــي تأثير في فعل من الأفعال ، وجميع الحوادث عندهم حدثت بقدرة الله ــ تعـــالي ــ لا فرق بين ما تعلقت به قدرة العباد وما تفرد الله ــ تعالي ــ بالاقتدار عليه .

وأهل السنة ينطلقون في رؤيتهم هذه من مبدأين أساسيتين :

١ ــ أن الأسباب لا تؤثر في مسبباتها والتلازم بينهما عادي .

٢ ــ وجـــوب وحدانيته تعالي ، ووحدانيته تعني انفراده بالخلق ؛ لأنه لا شريك له في أفعاله ، وليس لأحد فعل يشبه فعله .

٣ ــ وجوب علمه تعالي للمعلومات .

٤ ــ وجوب عموم قدرته تعالي وإرادته لسائر الممكنات .

ونـــود أن نشـــير هـــنا إلي قضية هامة ألا وهي : الصلة بين الأسباب والمسببات .

هناك ثلاثة اتجاهات في الموضوع :

١ ــ الحكمـــاء يـــرون أن الأســـباب تؤثـــر بطبعها ، ولا يشترط لتأثير الأســـباب في المسببات إلا تحقيق الشرط وانتفاء المانع ، فإذا كان مـــن طبيعة النار الإحراق ، فإن هذا الإحراق يتحقق عند ملامسة الشيء المحترق .

٢ ــ المعـــتزلة : يرون أن الأسباب تؤثر في المسببات بقوة خلقها الله ، فالنار تحرق ؛ لأن الله ــ تعالي ــ خلقها وأودعها قوة الإحراق .

٣ ــ الماتــريديه : ذهبوا إلي أن الأسباب تؤثر في المسببات بقوة خلقها الله فيهــا ، إلا أنهــم يــرون أن هــناك تلازماً عقلياً بين الأسباب والمسببات ، بمعني أن المسببات لا تتخلف عن أسبابها ، فالإحراق لا يتخلف عن ملامسة النار للأشياء .

٤ ــ الأشاعرة : التلازم بين الأسباب والمسببات عند الأشاعرة ــ عادي ، بمعني أنه يمكن أن تتخلف المسببات عن الأسباب ، فالنار يمكن أن تلامس الأشياء القابلة للاحتراق ولا تحرقها .

وهذا هو الرأي الذي ارتضاه صاحب جوهرة التوحيد وشارحوها (١)

يقول الإمام البيجوري :

" .. ومــن اعتقد أن المؤثر هو الله ، وجعل بين الأسباب والمسببات تلازما عادياً بحيث يصح تخلفها فهو المؤمن الناجي إن شاء الله " (٢)

بعــد هــذا يمكنــنا القول : إن أهل السنة وإن اعتقدوا أن كل الأفعال الاخــتيارية من خلق الله ــ تعالي ــ فإنهم ينسبون الخير إلي الله ــ تعالي ــ وينســبون الشر إلي العبد ، وذلك اقتداء بما فعله سيدنا إبراهيم ــ عليه الســلام ــ تأدبا مع ربه ، فقد قال الله علي لسانه:" الذي خلقني فهو يهدين والــذي هــو يطعمــني ويســقين وإذا مرضت فهو يشفين "(٣) ولم يقل : أمرضــني ، وقوله تعالي " ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك " (٤) فالأدب ألا ينسب إلي الحق تعالي إلا الخير (٥)

---

(١) المنهج الجديد ص ٨٦ .

(٢) شرح البيجوري علي الجوهرة ص ١٠٩ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٧٨ ــ ٨٠ .

(٤) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١٣٠ .

التوفيق والخذلان

قال صاحب الجوهرة :

وخاذل لمن أراد بعـــــده   موفق لمن أراد أن يضــــــل

يجب علي المسلم أن يعتقد أنّ الموفق للعبد والخاذل له هو الله وحده ، لأنه سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاد لجميع المخلوقات .

هذا ما ذهب إليه أهل السنة وأدلتهم علي ذلك كثيرة منها :

١ ـــ قـــولـــه تعالي : " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي مـــــن يشاء "(١)

٢ ـــ قـــولـــه عـــز وجل : " والله يدعو إلي دار السلام ويهدي من يشاء إلي صراط مستقيم " (٢)

٣ ـــ قـــولـــه سبحانه : " من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون " (٣)

٤ ـــ وقوله جل شأنه :" فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام "(٤)

هذا بالنسبة للهداية والتوفيق .

أما بالنسبة للختم والطبع فقد وردت آيات كثيرة منها :

١ ـــ قـــولـــه تعالي : " وجعلنا علي قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهـــم وقر " (٥)

٢ ـــ وقال تعالي : " بل طبع الله علّيها بكفرهم " (٦)

---

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .   (٦) سورة النساء الآية ١٥٥ .
(٢) سورة يونس الآية ٢٥ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .
(٥) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

٣ — وقال سبحانه : " ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم وعلي أبصارهم غشاوة " (١)

وبناء علي ما سبق فإن الله — تعالي — يجوز في أفعاله توفيق من شاء من عباده وخذلان من شاء ، وإذا كنا قد اعتقدنا أن الله — سبحانه — هو الخالق لكل شيء ، فيلزمنا الاعتقاد بأن الموفق والخاذل للعبد هو الله .

لكن قد يحدث هناك خطأ لدي البعض في فهم قضية الهداية والإضلال ، وهذا راجع إلي عدم الفهم لكتاب الله العزيز .

فمثلا قوله تعالي :" كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلي ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون " (٢)

وقوله جل شأنه " أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء " (٣)

يقول المعترضون : كيف يضل الله العبد ثم يعذبه ؟

وكيف يزين له سوء عمله ثم يعاقبه ؟ إذا كان الأمر كذلك فأين العدل إذن ؟

وبداية يظهر لنا بوضوح جهل هؤلاء المعترضين الذين أساؤا الظن بربهم فهلكوا بجهلهم ، فقد خفيت عنهم الحقيقة وهي أن الله — تعالي — إنما يضل من أضل بعد أن يعذر إليه بتبيين سبيل الهدي واضحة ، ويمنحه القدرة الكافية علي السير فيها ، فإذا آثر العبد — بعد العلم — طريق الضلال علي طريق الهدي ، ولاه الله ما تولي واختار ، فكان ذلك عدلاً

(١) سورة البقرة الآية ٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٨ .
(٣) سورة فاطر الآية ٨ .

مـــنه ســـبحانه ، كما قال في سورة التوبة " وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون " (١)

أما من آثر الهداية ورغب فيها ، وطلبها وعمل بأسبابها فإنه يجد عوناً ومـــدداً مـــن الله علي تحصيلها وتحقيقها ، وهذه رحمة من الله ـــ تعالي ـــ بعبادة .

إن هـــذا التزيين الوارد في بعض الآيات إنما هو سنة إلهية لا تتخلف ، وهي أن المرء إذا آثر العمل باختياره ، وأحبه من نفسه ولازمه غير منفك عنه زمناً طويلا أصبح هذا العمل حسناً عنده وإن كان شيئاً قبيحاً ، والعمل الفاسد كالعمل الصالح في هذه السنة ، كلاهما يزين لفاعله بهذه الطريقة .

وقـــد كان من رحمة الله ـــ تعالي ـــ أن حذر عباده من استدامة العمل الفاسد ، والإصرار عليه ، ودعاهم إلي تركه والتوبة منه ، قبل أن يبلغ بهم الأمر إلي مستوى التزيين ، حسب سنة الله ، إذ يومها يتعذر عليهم الإقلاع عـــن هذا العمل وتركه ، فمن استجاب لهذا التحذير نجا ، ومن تجاهل هذا التحذير هلك ، ومن نجا فقد نجا برحمة الله ، حيث نهاه عن الغي فانتهي ، أمـــا مـــن أصر علي الغي ، واتخذه سبيلاً ، ومضي فيه حتى أصبح القبيح عـــنده حسناً فقد فقد الاستعداد لقبول دعوة الهدي والخير ومضت فيه سنة الله فـــي الـــتزيين ، فهلك مع الهالكين " وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " (٢)

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٥ .

(٢) ســـورة النحل الآية ٣٣ ، ينظر : عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ٣٧٤ ـــ ٣٧٥ ط عيسي الحلبي ـــ مصر .

الوعد والوعيد

قال صاحب الجوهرة :

.... ومنجز من أراد وعده

يـــتفق أهـــل السنة والجماعة علي أن وعد الله ـــ تعالي ـــ بالثواب لا يتخلف شرعاً ، وهذا ما أخبرنا به القرآن الكريم .

قال تعالي : " إن الله لا يخلف الميعاد " (١)

وقال تعالي : " وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢)

وقال جل شأنه : " إنك لا تخلف الميعاد " (٣)

كما أن تخلف الوعد سفه ، وهو مستحيل علي الله ـــ تعالي .

والملاحظ أن مسألة الوعد متفق عليها بين الأشاعرة والماتريدية .

أما الوعيد فقد اختلف فيه :

فذهـــب الأشـــاعرة إلـــي أن الوعيد يمكن أن يتخلف؛ ذلك أن الخلف في الوعيـــد لا يعـــد نقصاً . بل يعد كرماً يمتدح به ، والكريم إذا أخبر بالوعيد فـــاللائق بكـــرمه أن يبني أخباره علي المشيئة وإن لم يصرح بها بخلاف الوعد فاللائق بكرمه أنه يبني إخباره به علي الجزم (٤)

أمـــا الماتريدية فقد ذهبوا إلي أنه يمتنع تخلف الوعيد ؛ لأنه لو لم ينفذ الوعيد للزم عليه مفاسد كثيرة منها :

١ـــ الكذب علي الله ـــ تعالي ـــ وهو منزه عنه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥ .

(٢) سورة الروم الآية ٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٤ .

(٤) شرح البيجوري ص ١١٣ .

٢ ــ تـبدل القـــول وذلك لقوله تعالي " ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد " (١)

٣ ــ تجويـــز عدم خلود الكفار في النار ، وذلك باطل لما فيه من مخالفة النصوص القرآنية .

ويجاب عن ذلك بما يلي :

ــ تخـــلف الوعيد من الله ــ تعالي ــ لا يعد كذباً في خبره لأن الكريم إذا أوعد بالشر علقه علي المشيئة .

ــ المســـتحيل تبديل القول في وعيد الكفار أ ومن لم يرد الله عنه عفواً ، والآية المذكورة محمولة علي ذلك .

ــ جـــواز تخلف الوعيد إذا كان وارداً فيما يجوز العفو عنه لا ينافي خلود الكفار في النار ، فإنه لا يجوز العفو عن الكفر ، لقوله تعالي : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " (٢)

---

(١) سورة ق الآية ٢٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ . يراجع المنهج الجديد ص ٩٤ .

السعادة والشقاوة

قال صاحب الجوهرة :

فوز السعيد عنده في الأزل كذا الشقي ثم لم ينتقـــــــــــل

قضـــية : السعادة والشقاوة تتعلقان بعلم الله الأزلي ، بمعني أن من ختم له بالإيمان ، دل علي أنه في الأزل كان من السعداء وإن تقدمه كفر ، وإن ختم له بالكفر دل علي أنه في الأزل من الأشقياء وإن تقدمه إيمان .

روي عـــن سهل بن سعد عن النبي ـــ صلي الله عليه وسلم ـــ قال : " إن العـــبد ليعمـــل عمـــل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار ، وإنما الأعمال بالخواتيم "(١)

وجاء في الحديث أيضاً عن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : " إن أحدكـــم ليعمـــل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عـــليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجـــنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها "(٢)

وبناء علي ما تقدم فقد ذهب الأشاعرة إلي أن السعادة والشقاوة أزليتان ، لاتتبدلان ولا تتغيران ، فالسعيد من علم الله موته علي الإيمان ، والشقي مـــن عـــلم الله موته علي الكفر ، والسعيد لا ينقلب شقياً ، والشقي لا ينقلب سعيداً .

واستدلوا علي ذلك بما يلي :

---

(١) البخاري

(٢) البخاري ومسلم .

لـــو انتقل السعيد أزلاً من السعادة إلي الشقاوة للزم انقلاب العلم الإلهي جهلاً وهو محال ، فما أدي إليه باطل ، وللزم أيضاً تبدل الإيمان كفراً بعد الموت ، وهو محال ، بل بدهي الاستحالة .

وكذلـــك لو انتقل الشقيّ من الشقاوة إلي السعادة للزم انقلاب العلم الإلهي جهـــلا ولـــلزم تبدل الكفر بعد الموت إيماناً وكلاهما مستحيل فبطل ما أدي إليه (١)

أمـــا الماتـــريدية فذهـــبوا إلي أن سعادة السعيد وشقاوة الشقي باعتبار الوصف القائم به في الـحال من الإيمان في الأول والكفر في الثاني .

وبـــناء عـــليه : فـــإن السعيد هو المؤمن في الحال وليس في الأزل ، والشقي هو الكافر في الحال وليس في الأزل .

وعـــلي ذلـــك فمن الممكن أن يشقي السعيد بالردة بعد الإيمان ، كذلك الشقي من الممكن أن يسعد بأن يؤمن بعد الكفر فيصير سعيداً .

وقـــد بني الماتريدية مذهبهم في السعادة والشقاوة علي تفسيرهم للسعادة والشقاوة .

فالسعادة هي الإسلام

والشقاوة هي الكفر

والسعيد هو المسلم في الحال

أما الشقي فهو الكافر في الحال

وقد اتفق الأشاعرة والماتريدية علي أنه لا يستحيل ارتداد المسلم الغير معصـــوم ، ولا إيمـــان الكافر الغير المختوم عليه بالشقاوة ، كذلك لا يجوز

---

(١) المنهج الجديد ص ٩٦ .

الارتداد علي من علم الله موته علي الإسلام ، ولا الإسلام علي من علم الله موته علي الكفر .

وواضح أن الخلاف بين الفريقين لفظي .

تعقيب :

لاشك أن الموت يأتي بغتة ، ومن هنا : فإن العبد لا يدري متى تقبض روحــه ، وعــليه فينبغي علي الإنسان أن يبادر إلي طاعة ربه ، والطاعة هــي الســبيل إلي الوصول إلي الجنة ، وقد أوجب الله ــ تعالي ــ التوبة علي المؤمنين لتحسن خاتمتهم .

الكسب

قال صاحب الجوهرة :

وعند للعبد كسب[١] كلفـــــا ولم يكن مؤثرا [٢] فلتعرفـــــا

فليس مجبوراً ولا اختيـــاراً وليس كل يفعل اختيـــــارا

يـــبين صاحب الجوهرة في هذين البيتين أن مذهب أهل السنة هوأنّ للعبد كســباً للأفعـــال ، وهذا الكسب متعلق به التكليف من غير أن يكّون موجداً وخالقـــاً لهـــا ، وإنما له فيها نسبة الترجيح كالميل للفعل والترك ، والأصل فـــي ذلك قوله تعالي : " وخلق كل شيء فقدره تقديراً " [٣] وقوله : " والله خلقكم وما تعلمون " [٤]

ولكي تتضح المسألة نشير بإيجاز إلي المذاهب في أفعال العباد .

أولاً مذهب الجبرية : زعموا أن أفعال العباد كلها اضطرارية ، وليس للعبد فعل اختياري أصلاً ، والعباد في أفعالهم كالجمادات في حركاتها ؛ لا قدرة لهـــم فيهـــا ولا اختيار ولا كسب ، وهم مع قدرة الله ــ تعالي ــ كالريشة المعلقة في الهواء ، تميلها الرياح حيث مالت .

واستدلوا علي ذلك بقوله تعالي : " والله خلقكم وما تعلمون " وقوله : " الله خالق كل شيء " [٥] وقوله " وما تشاؤن إلا أن يشاء الله " [٦]

---

(١) الكســـب : مـــا يقع به المقدور مع صحة انفراد القادر به أو ما يقع به المقدور في محل قدرته .

(٢) التأثير : هو الاختراع والإيجاد .

(٣) سورة الفرقان الآية ٢

(٤) سورة الصافات الآية ٩٦ .

(٥) سورة الزمر الآية ٦٢ .

(٦) سورة الإنسان الآية ٣٠ .

ثانيــا : المعــتزلة : ذهب المعتزلة إلي أن أفعال العباد الاختيارية مخلوقه للعباد ، ولا دخل لقدرة الله ـــ تعالي ـــ في إيجادها ، وهم يقرون بأن العبد يخلق أفعاله الاختيارية بقدرة خلقها الله ـــ تعالي ـــ فيهم .

ويستدلون علي ما ذهبوا إليه بآيات من القرآن الكريم منها : قوله تعالي : " وقــل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون " [١] وقوله : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات " [٢]

ثالــثا : الأشاعرة : يري الأشاعرة أن أفعال العباد الاختيارية من خلق الله ـــ تعالي ـــ وليس لقدرة العبد تأثير فيها .

ومبـــني مذهـــبهم أن الـــتلازم بين الأسباب والمسببات تلازم عادي ، ومادام الارتباط عادياً فمن الممكن أن تتخلف الأسباب عن مسبباتها .

وقـــد فـــرق الأشاعرة بين الأفعال الاضطرارية والاختيارية ، ذلك أن الإنسان يشعر بالقدرة علي الثانية دون الأولي ، وهذا يدل علي أن له قدرة يســتطيع استخدامها ، وهذه القدرة مسبوقة بالإرادة ، وبهذه القدرة يكتسب الإنســـان أفعالـــه ، فللإنســـان إذن كسب فقط ، وهذا الكسب ـــ كما يري الأشعري ـــ هو مناط التكليف والثواب والعقاب .

ويفســـر الكسب عند الأشاعرة بأنه اقتران قدرة العبد بفعل الله ، بمعني أن الإنســـان إذا أراد أن يفعـــل فعلاً فإن الله ـــ تعالي ـــ يخلق له في هذه اللحظة قدرة علي هذا الفعل ، وهذه الأخيرة هي التي تكتسب الفعل ، لكنها لا تخلقه ، والفعل في هذه الحالة يسمي كسباً للعبد .

ويظن الأشاعرة بذلك أنهم توسطوا بين الجبرية والمعتزلة [٣]

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٥ . (٣) العقيدة في ضوء القرآن الكريم ص ١٧٢ ، ١٧٣
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٧ .

تعقيب :

الحقيقة أن مسألة الكسب التي أدلي بها الأشعري يكتنفها الغموض ، بل ولا تبتعد كثيراً عن مقولة الجبرية .

وقـد حـاول بعـض الأشاعرة تفسير مسألة الكسب واختلفت وجهات نظـرهم فيها ، ومازالت المشكلة قائمة ، حتى أن بعض الباحثين يري أنه مـن الأفضـل تفويض علم هذه المشكلة إلي الله ــ تعالي ــ ذلك أنها من المسائل العويصة ، التي تبدد الوقت والجهد [١]

والـذي يريح النفس ، ويطمئن القلب في هذه القضية الشائكة أن الله ــ تعالي ــ خالق كل شيء ، وإرادته نافذة في الوجود كله ، فلا يقع في ملكه إلا مـا يريد ، وقد منحنا ــ جل شأنه ــ حرية الإرادة في أعمالنا والقدرة عـليها في إطار إرادته الشاملة وقدرته المطلقة الكاملة ، فعلينا إذن العمل وعدم التعلل بالقدر ، لأنه مغيب عنا ، ونحن به جاهلون [٢]

وطالمـا أن الإنسان لا يطلع علي علم الله ــ تعالي ــ وما قدر له في الإزل فـإن أعماله التي تصدر عنه تكون عن إرادة وقصد واختيار وحرية ، وحينئذ تقوم عليه الحجة وتبطل المحجة [٣]

---

(١) شـرح اتحـاف المريد بجوهرة التوحيد ص ٨٠ د/فتحي أحمد عبد الرازق ط الحسين ١٩٩٤ ،

(٢) مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي ص ٥١ د/ أحمد عبد الحميد الشاعر ط ١ دار الطباعة المحمدية ،

(٣) العقيدة والأخلاق ص ٥٧ د/ عبد الرحمن بيصار ص ٢١ ، ١٩٧٠ ــ مصر

الثواب والعقاب

قال صاحب الجوهرة :

فإن يثبنا فبمحض الفضـــل وإن يعذب فبمحض العـــــدل

عرفـنا فيما سبق أن الله ــ تعالي ــ هو المنفرد بالخلق والإيجاد ، وأن إرادتــه نــافذة في الوجود كله ، وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن نعتقد بأن إثابــة الله ــ تعـالي ــ للمطيعين هي بمحض فضله ، وأن عقابه للعصاه بمحــض عدله الخالص ، وهو وضع الشيء في محله ؛ فالثواب ليس بحق محــتوم ولا جــزاء مجزوم ، وإنما فضل من الله تعالي ، والعقاب أيضاً لا يجــب علي الله ــ تعالي ــ بل هو العدل منه سبحانه وهذا هو مذهب أهل السـنة والجماعــة وهو مبني علي أصول قرروها وهي أنه سبحانه منفرد بالخلق والإيجاد وأنه لا واجب عليه تعالي (١)

أما المعتزلة فيقولون بوجوب الثواب علي الله ــ تعالي ــ للعبد الطائع

ويستدلون علي ذلك بأن التكاليف أمور شاقة ، وهذه التكاليف إذا كانت لا لغــرض ، كــان صدورها عن الله عبثاً ، والله ــ سبحانه ــ منزه عن العبث وإن كانت لغرض راجع إليه فهو سبحانه منزه عن الحاجة والانتفاع والتضرر .

وإن كــانت الــتكاليف لغرض يرجع إلي العبد ، وكون الغرض تعذيب الإنســان في الآخرة باطلاً قبيحاً ؛ لأنه يتحمل الكثير من المشاق في الدنيا بســبب الــتكاليف ــ فــلم يبق إلا كون الغرض من التكليف هو النفع في الآخرة أي الثواب .

---

(١) اتحاف المريد بجوهرة التوحيد ص ١٥١ شرح د/ فتحي أحمد عبد الرازق .

ويـــرد عليهم بمنع وجوب الغرض ، لأن أفعال الله ـــ تعالي ـــ لا تعلل بالأغراض؛لأنه تعالي لا يسأل عما يفعل (١)

أمـــا العقـــاب فإن المعتزلة يقولون بوجوبه علي الله لكل من مات علي الكبيرة ولم يتب منها .

ويـــرد علي المعتزلة أن ذلك جهل بالكرم والمروءة والعقل والشرع ، لأن الـــتجاوز والصفح أفضل من العقوبة والانتقام ، وقد حثنا الله علي ذلك فـــي كتابه فقال : " ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " (٢) وقال " وأن تعفو أقرب للتقوى " (٣)

وأن العفو والصفح من شيم الكرام ، والعقول تتجه إلي مدح من يتصف بهما .

هـــذا في الشاهد المتضرر بجناية الآخرين عليه ، أما الحق سبحانه فهو متصف بكل كمال يليق بذاته ، ومن هذه الكمالات:الرحمن والرحيم والحليم والعفو.(٤)

والـــذي نريد أن ننتهي إليه هو أن الثواب إنما هو بفضل الله ـــ سبحانه ـــ يعطيه عن اختيار كامل ، لا شائبة فيه لأي وجوب ، حتى ولو كان هذا الوجوب مع الاختيار كما يري المعتزلة(٥) .

---

(١) شرح المواقف للشريف الجرجاني ٣٣٢/٣ ط ١٣١١ هـــ .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٧ .

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ص ١٥٨ ، ١٥٩ ـــ مكتبة الجندي ـــ تحقيق مصطفي أبو العلا

(٥) المنهج الجديد ص ١٠٦ .

إن الإنســـان ينقــلب في نعم الله ـــ سبحانه ـــ منذ بدء وجوده في دنيا الناس إلي أن يذهب إلي عالم الخلود ٠

وعــليه أن يشكر ربه بإخلاص العبودية . ومعرفة ربه حق المعرفة ، وهو إذ يشــكر فإنمــا يشكر بإقدار الله له وتوفيقه لهذا الشكر ، أي بنعمة جديدة عليه ، وهكذا تتوالي نعم الله علي الإنسان في كل لحظة من لحظات عمره ، وهــو إزاء تأدية ما عليه من الحقوق لا يستوجب أيّ عوض ، فلا يجب عــليه سبحانه أن يثيبه علي الشكر ، ذلك أن الوجوب بكل معانيه منتف في حقه سبحانه ، فهو المتصرف في ملكه كيف يشاء (١)

---

(١) قضايا عقديه ص ٥٨ ، ٥٩ د/ محمد الأنور حامد عيسي ط دار الصفا للطباعة ـــ مصر ـــ ١٤٠٩ هـــ ـــ ١٩٨٨ م .

الصلاح والأصلح

قال صاحب الجوهرة :

وقولهم إن الصلاح واجـــب　　زور ما عليه واجـــــــــب
ألم يروا إيلامه الأطفـــالا　　وشبهها فحاذر المحـــــالا

فـــي البداية نود أن نشير إلي أن نظرية الصلاح والأصلح تعد من أهم وأبرز القضايا التي تبناها المعتزلة .

ويـــري بعـــض الباحثين؛ أن إيمان المعتزلة بعدالة الله المطلقة وتنزيهه عن الجور والظلم قد ساقهم إلي أن يثيروا قضية من أهم قضايا علم الكلام تتصـــل بـــالفعل الخـــاص بالذات الإلهية نحو البشر ، إنها قضية الصلاح والأصلح (١)

ونحـــن لسنا بصدد الحديث عن هذه النظرية وتفريعاتها لدي المعتزلة ، وإنما غرضنا بطلان لفظ الوجوب علي الله ــ سبحانه ــ إذ أن مذهب أهل الســـنة والجماعـــة أنه لا يجب علي الله ــ تعالي ــ شيء وهذا هو مقصد صاحب الجوهرة .

مذهب المعتزلة :

يـــري معتزلة بغداد أن الأصلح بمعني الأوفق في الحكمة والتدبير ، لا بمعـــني الأنفع ، والقول بوجوب الأصلح بمعني الأوفق للحكم والمصالح ، فيجوز له سبحانه وتعالي ترك الأنفع للعبد مراعاة للحكم (٢)

---

(١) المعـــتزلة واتجـــاههم العقلي وأثره في الفكر الإسلامي ص ١٣٨ وما بعدها رسالة دكتوراه في كلية أصول الدين د/ نشأت عبد الجواد ضيف .

(٢) قضـــايا عقدية ص ٤٣ نقلاً عن تبصرة الأدلة ص ٧٧٤ رسالة دكتوراه مخطوطة في كلية أصول الدين د/ محمد الأنور حامد عيسي .

أمـــا البصـــريون فالصــــلاح عندهم هو النفع ، والنفع عبارة عن اللذة والســـرور ، أو ما يؤدي إليهما ، فكل ما علم نفعاً علم صلاحاً ، فيستحيل الصــــلاح عـــلي مـــن يستحيل عليه النفع ، فلا يقال في الشيء أنه صلاح لـــلجماد والميـــت ، ولا يســـتعمل ذلـــك في القديم سبحانه ، وإنما يضاف الصلاح إلي من يصلح به [١]

والأصــــلح في باب الدين عندهم فعل ما يكون المكلف عنده أقرب إلي أداء مـــا كـــلف مـــن الواجبات العقلية ، وقد ذهبوا إلي وجوبه علي الله ــ تعالي .

مذهب الأشاعرة [٢] :

ذهـــب الأشـــاعرة إلي عدم وجوب الصلاح والأصلح عليه تعالي،ولهم أدلة علي ذلك من النقل والوجود والمشاهد :

أولا : الأدلة النقلية :

قال الله تعالي : " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها" [٣]

وقال سبحانه : " فلو شاء لهداكم أجمعين " [٤]

وقال عز وجل : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً "[٥]

وواضــــح من هذه الآيات السابقة أن الله ــ سبحانه ــ قادر علي هداية الناس جميعاً ؛ لكنه لم يشأ ذلك حتى لا يكون الإنسان مجبوراً ، وبذلك يتم الاختيار والابتلاء وتصح المسئولية ، التي يترتب عليها الثواب والعقاب(٦)

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار ٣٥/١٤ .

(٢) المرجع السابق ٣٧/٤ .

(٣) سورة السجدة الآية ١٣ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٤٩ .

(٥) سورة يونس الآية ٩٩ .

(٦) قضايا عقدية ص ٤٤ ، ٤٥

ثانيا : الأدلة المشاهدة في الوجود :

أن مـــن يـــنظر فـــي أحوال الناس يجد أن أفعال العباد المخلوقة لله ــ تعالي ــ فيها الكفر والمعاصي والأمراض والآلام ، والعباد يتضررون بها ، وليس في إيجادها مصلحة لهم ، فلا صلاح ولا أصلح .

نـــاهيك بعد ذلك بالكوارث كالزلازل والبراكين والسيول والاعصارات المدمـــرة وغيرها ، والظاهر والمشاهد في هذه الأحداث أنه لا صلاح فيها ولا أصلح .

ولذلـــك تذكر بعض الكتب إن السبب الذي جعل الإمام الأشعري يتحول مـــن مذهب الاعتزال هو أنه سأل شيخه الجبائي في أحد دروسه قائلاً : ما تقول في ثلاثة أخوة مات أحدهم كبيراً مطيعاً والثاني كبيراً عاصياً والثالث صغيراً ما عاقبتهم ؟

فأجابه الجبائي قائلاً : الطائع من أهل الدرجات والعاصي أو الكافر من أهل الهلكات .

ومـــن ثـــم فـــالأول يـــثاب بالجنة والثاني يعاقب بالنار مع التفرقة بين المؤمن العاصي والكافر . وأما الأخير فهو من أهل النجاة .

فقال الأشعري لأستاذه : ما رأيك لو قال الثالث والأخير يارب لم أمتني صغيراً وما أبقيتني فأطيعك فأدخل الجنة ماذا يقول الرب ؟

فأجـــاب الجبائي : إن الله يقول له:كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت فكان مصلحتك في أن تموت صغيراً .

قـــال الأشـــعري فإذا قال الكافر : ولماذا يا رب لم تراع مصلحتي أنا الآخر فأموت صغيراً وأنت تعلم أني حين أكبر سأكون كافراً ويكـــــــون

مصيري جهنم فبهت الجبائي ولم يستطع الرد [١]

وقد بدا واضحاً من خلال هذه القصة عجز الجبائي وتفوق الأشعري علي أستاذه .

ونحن لسنا بصدد الكشف عن الأسباب التي جعلت الإمام الأشعري يتحول عن مذهب الاعتزال ، لكن الذي نريد أن نؤكد عليه أن الأصلح للعباد ليس بواجب — كما يقولون ، وكيف توزن أفعال الله — تعالي — بالموازين البشرية ؟!!

ثالثا : الإجماع :

أجمع المسلمون والنصارى واليهود علي ضرورة التوجه إلي الله — تعالي — بالدعاء .

والأمر لا يخلو إما أن يكون ما يسألونه أعطاهم الله إياه أو لم يعطهم .

فإن كان الذي يسألونه قد أعطاهم إياه ، فدعاؤهم — حينئذ — عبث لا معني له .

وإن كان لم يعطهم فالأمر لا يخلو إما أن لا يجوز ألا يعطيهم أو يجوز فأن كان لا يجوز ألا يعطيهم ، بل يجب ، كان منعهم ظلماً ، وإن كان يجوز ألا يعطيهم فقد بطل مذهب المعتزلة بوجوب الأصلح .

هذا وقد استدل أهل السنة علي بطلان القول بالصلاح والأصلح بأدلة منها ؛

١ — لو وجب عليه تعالي رعاية الأصلح للعباد لما خلق الكافر الفقير ؛ المعذب في الدنيا بالفقر والآلام والأسقام وفي الآخرة بالعذاب الأليم المخلد ، فالأصلح — حينئذ — عدم خلقه أو إماتته صغيراً .

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣/٣٩٨ تحقيق محي الدين عبد الحميد — النهضة المصرية جـ ٢١ — ١٩٦٤ /

٢ ــ لــو وجب علي الله ــ تعالي ــ فعل أو ترك لما كان مختاراً ؛ لأن المخــتار هــو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك ، وقد ثبت أن الله متصف بالإرادة والاختيار .

٣ ــ لــو وجب علي الله ــ تعالي ــ الصلاح والأصلح لما آلم الأطفال والعجــزة ، ولما خلق إبليس وطرده من رحمته ، وتوعده بالخلود في النار هو ومن اتبعه ، فأي صلاح تحقق لهؤلاء وأمثالهم (١)

وبعــــد :

أن المعتزلة بقول بوجوب الصلح والأصلح عليه تعالي قد ارتكبوا خطأ فادحاً ، ومهما كانت لهم من تعليلات وتبريرات إزاء هذه النظرية فنحن لا نــتفق معهــم في القول بالوجوب علي الله إطلاقا ، ولا أدري كيف امتدت جرأتهم إلي الذات الإلهية حتى وصلوا إلي هذا الحد ؟

إن الوجــوب العقلي لا يمكن تخلفه ، والوجوب الشرعي يلحق صاحبه المذمه إذا تركه ، أي أن الأمرين منقوضان ، إذ الصلاح بالنسبة للأفراد لا يــتحقق باضــطراد ، هذا إلي أنه لا يجوز أن تلحق المذمة الخالق الأعظم جل جلاله لترك الأصلح (٢)

نحن لا ننكر للمعتزلة مواقفهم المشرفة ، بل وتفانيهم في خدمة العقيدة الإســلامية والدفاع عنها ، إلا أن نظريتهم هذه ــ الصلاح والأصلح ــ قد جانبها الصواب ، ولم يتفق معهم أحد في هذه النظرية .

وهذا هو ما دعا صاحب الجوهرة أن يرد عليهم قائلاً :

وقولهم إن الصلاح واجب	زور ما عليه واجــــــــب
ألم يروا إيلامه الأطفــالا	وشبهها فحاذر المحــــــــالا

(١) المنهج الجديد ص ١٠٩ . (٢) المعتزلة واتجاهم العقلي ص ٢٤٩ .

الخير والشر

قال صاحب الجوهرة :

وجائز عليه خلق الشر والخير كالإسلام وجهل الكفر

غرض صاحب الجوهرة من إيراد هذا البيت هو إثبات عموم إرادة الله ــ تعــالي ــ لــلخير والشر ، لأنه ــ سبحانه ــ خالق كل شيء ومبدعه ، فيلزمــنا الاعــتقاد بأنه مريد لكل شيء ، إذ الخالق لابد أن يكون مريداً لما هو خالق له (١)

مذهب أهل السنة في الخير والشر :

ذهــب أهل السنة إلي أن إرادة الله ــ تعالي ــ تتعلق بالممكنات عموماً ، ومن ثم فجميع أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله ، وهي مرادة له ، وكل مــن الخيــر والشر واقع بإرادته تعالي ــ التي تتعلق بجميع الممكنات ولا يــلزم من كون الشيء مراداً أن يكون مرضياً عنه ، فقد يريد الله شيئاً ولا يرضي عنه .

وقد بني أهل السنة مذهبهم هذا علي ما يأتي :

١ ــ إن الحســن مــا حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، والأفعال الاختيارية لا تتصف بالحسن والقبح قبل ورود الشرع .

٢ ــ التفرقة بين الإرادة والرضا والأمر .

فالإرادة : تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلة .

والرضا : قبول الفعل .

والأمر : هو الطلب القائم بالنفس أو اللفظ الدال عليه .

---

(١) اتحاف المريد ص ١٦٦ شرح د/ فتحي عبد الرازق .

وهــذا الأمر قد يكون تكوينياً ، وهو ما يعبر عنه بكن كقوله تعالي : " إنمــا أمــره إذا أراد شــيئاً أن يقول له كن فيكون "[١] وهذا الأمر ملازم للإرادة .

وقــد يكــون تشريعياً ، وهو يخالف الإرادة ، إذ لا تلازم بينهما ، فقد يجتمعان وقد يرتفعان وقد يوجد واحد منهما [٢]

أدلة أهل السنة :

استدل أهل السنة علي مذهبهم بأدلة من الكتاب والسنة منها :

١ ــ قــوله تعالي : " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء"[٣]

٢ ــ قوله صلي الله عليه وسلم : " ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن[٤]

٣ ــ قــوله صلي الله عليه وسلم : " ونؤمن بالأقدار كلها خيرها وشرها حلوها ومرها "[٥]

ومن الأدلة العقلية :

١ ــ أن الله ــ تعــالي ــ خــالق كــل شيء ومبدعه ، والخالق لابد أن يكون مريداً لخلقه ، فالله ــ تعالي ــ مريد لكل شيء .

٢ ــ لــو كان الشر الواقع في ملك الله غير مراد لله لكان مكرها عليه ، وهذا يعني أنه يقع في ملكه ما لا يريده ــ تعالي الله ــ عن ذلك .

هذا ويحكي أن إبليس ــ لعنه الله ــ تمثل بين يدي الإمام الشافعي ــ

---

(١) سورة يس الآية ٨٢ .

(٢) الشرح الجديد ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٤) رواه الإمام أحمد .

(٥) سنن ابن ماجة .

رضــــي الله عــنه ــ وقــال : يــا إمــام ما تقول فيمن خلقني لما اختار ، واســتعملني فيما اختار ، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار أعدل في ذلك أم جار ؟

قال الإمام فنظرت في مسألته فالهمني الله ــ تعالي ــ أن قلت :

يــا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسأل عما يفعل وهو يسألون .

فاضــمحل إبـليس وتلاشــي ، ثــم قال : والله يا شافعي لقد أخرجت بمسألتي هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية إلي ديوان الزندقة (١)

ومــن الحــوادث الطــريفة الــتي دارت بين أحد أقطاب الأشاعرة هو الاسفرايني ، والقاضي عبد الجبار ــ أحد أعلام المعتزلة البارزين .

قال القاضي عبد الجبار : سبحان من تنزه عن الفحشاء ،

رد الاسفرايني قائلاً : سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

قال القاضي عبد الجبار : أفيشاء ربنا أن يعصي ؟

فقال الاسفرايني : أيعصي ربنا قهراً ؟

قــال القاضــي عــبد الجبار : أفرأيت إن منعني الهدي ، وقضي علي بالردى أحسن أم أساء ؟

فــرد الاسفرايني : إن كان منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن كان منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء (٢)

---

(١) شرح البيجوري علي الجوهرة ص ١٢٥ .

(٢) المنهج الجديد ص ١١٨ .

مذهب المعتزلة :

ذهـب المعـتزلة إلي أن الله ـ تعالي ـ لا يريد الشر سواء وقع أم لم يقـع ، والشـر إنمـا يقع بإرادة العباد فقط ، فالله ـ تعالي ـ يريد الخير ويحـبه سواء وقع أو لم يقع ، ومن هنا فلا تلازم بين إرادة الله ـ تعالي ـ ووقـوع الفعـل ، فهو سبحانه يريد الإيمان من الكافر مع أنه لا يقع منه ، ولا يـريد الكفر وإن وقع ، والذي يوصف بالحسن والقبح عند المعتزلة هو أفعـال العباد الاختيارية ، أما أفعال الله ـ تعالي ـ فلا توصف بحسن ولا بقبح ، فكلها خير وحسن ؛ إذ لا يتعلق بها عقاب أو ذم .

وواضح أن المعتزلة يعتمدون في بناء مذهبهم هذا علي الحسن والقبح العقليين ، بمعني أن مدرك حسن الأشياء وقبحها هو العقل والحسن والقبح إذن صفتان من الصفات الذاتية للأشياء ، فالكذب فيه قبح ذاتي ، والصدق فيه حسن ذاتي ، والشرع أمر بفعل الشيء لأنه في ذاته حسن ، ومن هنا كانت وظيفة الشرع هي الإخبار وليس الإثبات (١)

أدلة المعتزلة : استدل المعتزلة علي مذهبهم بما يأتي :

١ ـ قوله تعالي : " وما الله يريد ظلماً للعباد " (٢)

والآيـة فيها دلالة علي أن الله ـ تعالي ـ لا يريد شيئاً من الشر مطلقاً ، ذلـك أنه نفي عن نفسه الظلم ، وقد جاءت كلمة الظلم في الآية منكرة ، ومن المعلوم أن النكرة في سياق النفيّ تفيد العموم .

٢ ـ قوله تعالي : " إن الله لا يأمر بالفحشاء " (٣)

والآية الكريمة تنفي أمر الله ـ سبحانه ـ بالفحشاء والأمر والإرادة

---

(١) يراجع : المغني للقاضي عبد الجبار ٦/٢١٦ ، ٢٤٤ واتحاف المريد ص ١٦١ .
(٢) سورة غافر الآية ٣١ . (٣) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

بمعني واحد ، وإذن فنفي الأمر يستلزم نفي الإرادة .

٣ ـــ قوله عز وجل " ولا يرضي لعباده الكفر " [١]

ومعـــني الآيـــة من وجهة نظر المعتزلة أن الله ـــ تعالي ـــ لا يرضي الكفر لعباده ، والرضا مرادف للإرادة ، فنفي الرضا يستلزم نفي الإرادة .

ومن أدلتهم العقلية :

١ ـــ الكفر غير مأمور به ، وكل ما ليس مأموراً به ليس مراداً ، فالكفر لا يكون مراداً لله ـــ تعالي ـــ والأمر والإرادة بمعني واحد .

٢ ـــ إن إرادة الشـــر شر وإرادة القبيح قبيح والله ـــ تعالي ـــ منزه عن ذلك .

٣ ـــ لـــو كـــان الكفر مراداً لكان الكافر بكفره مطيعاً لكن التالي باطل ؛ لأن الكافر عاص بالإجماع ، فالكفر غير مراد ومثله سائر الشرور والقبائح .

وإذن فالشـــرور والقبائح لا تقع إلا بإرادة العبد ، فالله ـــ تعالي ـــ أراد من الكافر الإيمان وإن لم يقع منه ، ولم يرد منه الكفر وإن وقع منه [٢]

هـــذا وقـــد بســـط المعـــتزلة هذه القضية في كتبهم وتناولوها بالشرح والتحليل وكلها تدور حول محاولة بسط المفاهيم البشرية علي مقام الألوهية ولـــذا فقـــد أنكر الأشاعرة هذا التصور بناء علي قصور العقل البشري عن إدراك جميـــع وجوه الحسن ، وجميع وجوه القبح ، وما أبدع هذه الاشارات التي تضمنتها قصة موسي ـــ عليه السلام ـــ مع العبد الصالح .

---

(١) سورة الزمر الآية ٧ .

(٢) يراجع : الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٤٥٩ والشرح الجديد ص ١٢١

فمـــاذا يظن العقل في قتل طفل برئ إلا أن يكون قبيحا القبح كله ؟ لكن هـــذا القـــبح الظاهر إذا وضع في إطار الكوائن الخفية انكشف ما فيه من وجوه للحسن لا تخطر علي بال .

إنـــنا في نطاق الجناب الإلهي لا ينبغي لنا أن نحسن بعقولنا ، فقد يكون هـــذا المستحســـن له وجـــه قبيح خفي ، وكذلك القبح ، فلا ينبغي أن نقبح بعقولنا ، فقد يكون لهذا المستقبح وجه حسن خفي .

ومـــن هذا المنطلق وقف أهل السنة يقررون عموم إرادته تعالي ، فهو ســـبحانه خالق كل شئ ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، فأفعال البشر بأسرها ـــ طاعـــة أو معصـــية ـــ مرادة له تعالي ، وإرادة الله ـــ سبحانه ـــ شاملة لكل ما هو كائن ، وما تتجه إليه الإرادة بالتخصيص فهو واقع لا محالة .

وبناء علي ما سبق؛فإن أهل السنة يرون أن الإرادة منفصلة عن الأمر وخيـــر دليـــل عـــلي ذلك هو قصة سيدنا إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وولده إســـماعيل ـــ عليهما السلام ـــ فالله ـــ تعالي ـــ أمر إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ بذبـــح ابـــنه ، ولكنه لم يرد ذلك منه وقوعاً ، بل كان المراد وقوعاً هو الفداء بذبح عظيم .

فهذه القصة تدل دلالة واضحة علي انفصال الإرادة عن الأمر .

وإذا كـــانت الإرادة منفصـــلة عن الأمر فهي أيضاً منفصلة عن الرضا والمحبة (١)

وهـــذا مـــا نميـــل إليه ونرجحه ، ومع هذا فنحن نقدر للمعتزلة وجهة نظرهم في هذه القضية الشائكة ، ذلك أنهم ـــ وإن جانبهم الصواب ألا أنهم يهدفون من وراء مقولتهم هذه التنزيه الخالص للباري ـــ جل شأنه .

---

(١) هوامش على العقيدة النظامية ص ٢٣٧ – ٢٤٥

لكنـــنا في النهاية نستطيع القول بأن عقل الإنسان قاصر ـــ مهما أوتي ـــ فـــي فهم هذه القضية ذلك أنه لا يستطيع أن يحيط بها من جميع جوانبها ، فهناك حقائق كثيرة تخفي عليه فيقف أمامها مندهشاً متعجباً ، وصدق الله إذ يقول :

" وعسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم " (١)

ويقـــول ســبحانه : " فعســـي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيـــــراً كثيراً " (٢)

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٢) سورة النساء الآية ١٩ .

الإيمان بالقضاء والقدر

قال صاحب الجوهرة :

وواجب إيماننا بالقـــــدر وبالقضا كما أتي في الخبـــــر

تعريف القضاء والقدر :

القضاء : إرادة الله ــ تعالي ــ للأشياء في الأزل حسب علمه ، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ .

والقدر : إيجاد الله ــ تعالي ــ للأشياء وفقاً لعلمه وإرادته .

فالقضـــاء فـــي الأزل ، والقدر فيما لا يزال ؛ لأن القضاء وجود جميع المخـــلوقات فـــي اللوح المحفوظ ، والقدر وجودها في أوقاتها التي حددها الحق ــ تبارك وتعالي ــ لها بأوصافها ومقاديرها وشروطها (١)

حكم الإيمان بالقضاء والقدر :

الإيمان بالقضاء والقدر يعد ركنا من أركان الإيمان ، بدليل ما جاء في حديـــث جـــبريل ــ عليه السلام ــ حين سأل رسول الله ــ صلي الله عليه وسلم ــ عن الإيمان ، فقال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال ــ أي جبريل ــ صدقت " (٢)

والمقصود من الإيمان بالقضاء والقدر :

١ ــ التصـــديق بأن الله ــ تعالي ــ عالم بالمخلوقات جميعاً في الأزل ، ومـــا يتعـــلق بهـــا في المستقبل ، كعلمه بالأزل بأن المرء يباشر الأسباب بإرادته واختياره المحض ، ثم يجازيه علي ما فعل .

---

(١) عقيدتنا ص ٣٧٨ هناك بعض الاختلافات بين أهل العلم في تعريف القضاء والقدر ، لـــم أر داعيـــاً لذكرها ، فمعظم هذه التعريفات راجعة في مجملها إلي العلم والإرادة والقدرة .

(٢) مسلم

٢ ـــ التصديق بأن المخلوقات جميعاً وجدت بإرادته ووفق علمه الأزلي ، قال تعالي :

" إنـــا نحن نحي الموتي ونكتب ما قدموا آثارهم وكل شئ أحصيناه في إمام مبين " (١)

وبـــناء عـــلي ذلك : فإنه لا علاقة بين الإيمان بالقضاء والقدر ، وبين الجبر والاختيار ؛ لأن العلم كاشف عما سيقع (٢)

يقول الإمام الخطابي :

" وقـــد يحســـب كثير من الناس أن معني القضاء والقدر إجبار الله ـــ ســـبحانه وتعـــالي ـــ العبد وقهره علي ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه : الإخبار عن تقدم علم الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ مما يكـــون مـــن اكتساب العبد ، وصدورها عن تقدير منه ، وخلق لها خيرها وشرها " (٣)

هذا ومن المعلوم أن الدليل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر سمعي ، كمـــا ورد فـــي كـــثير من الأحاديث الصحيحة ، فمن لم يؤمن بالقضاء والقدر يكفر ؛ لأنه أنكر معلوماً من الدين بالضرورة (٤)

عرض تاريخي لمسألة القضاء والقدر :

مســـألة القضـــاء والقـــدر تعد من القضايا الشائكة التي شغلت الناس قديماً وحديثاً .

---

(١) سورة يس الآية ١٢ .

(٢) كبرى اليقينيات الكونية ص ١٦١ .

(٣) النووي على صحيح مسلم ١٩٩/١ بها مش ارشاد الساري للقسطلاني .

(٤) الشرح الجديد صـــ ١٣٠

جـــاء في الحديث الصحيح أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ سمع جمعاً من الصحابة يتباحثون في القدر فخرج مغضباً يعرف الغضب في وجهه ، حــتى وقــف عــليهم فقــال : " أي قوم ! بهذا ضلت الأمم قبلكم ، ضلت باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، إن القرآن لم ينزل لتضـــربوا بعضه ببعض ، ولكن يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به " (١)

ومـــن هنا نستطيع القول بأن مسألة القضاء والقدر ليست بحثاً جديداً ، ولكنها مسألة مثارة في القديم والحديث ، بل هي قديمة قدم الإنسان نفسه . والحقيقـــة أنـــه بعـــد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية دخل بعض الناس في الإسلام ومع ذلك ظلوا متأثرين بدياناتهم السابقة .

والـــبعض مـــنهم حاول نشر عقائده الفاسدة في البيئة الإسلامية ، ومن هـــؤلاء الذيـــن أثاروا الكلام عن قضية القدر في القرن الثاني الهجري هو معـــبد الجهـــني ، والـــذي زعم أن علم الله لايسبق وجود الأشياء ، وإنما يســـتأنف بعد حدوثها ، وتبعه في ذلك غيلان الدمشقي ، بل إن هذا الأخير يعـــد في رأي كتاب الفرق المبشر الحقيقي بمذهب القدر ، وقد صلبه هشام بن عبد الملك على باب دمشق .

وعلى أي حال فإن معبد الجهني وغيلان الدمشقي قد أسسا مدرسة القدرية ، والـــتي كـــان شعارها " لا قدر والأمر أنف " أي : أن الإنسان هو الذي يقدر أعمال نفسه ويتوجه إليها بإرادته ثم يوجدها بقدرته .

وقـــد كان رد الفعل على هذه المدرسة أن قامت مجموعة أخرى قررت أن الإنسان مَجبور في كل أفعاله وأنه كالريشة المعلقة في الهواء ، فليـــس

(١) البخاري

للإنســـان ــ في نظرهم ــ قدرة ولا إرادة ولا اختيار ، بل هو مجبور في أفعاله .

ويذهب بعــض الباحـــثين إلي أن معاوية بن أبي سفيان حين استقر له الأمـــر أراد أن يثـــبت في أذهان الناس أن إمرته علي المسلمين إنما كانت بقضاء الله وقدره فأشاع الفكرة وشجع مذهب الجبر (١)

ولقد انقرضت مدرسة الجبرية الخالصة التي أقامها الجهم بن صفوان ، وانــتهت كذلــك القدريـــة التي أسسها معبد الجهني ، وكان هذا أمراً حتمياً فرضـــته طـــبيعة التطرف التي صبغت بها كلتا الفكرتين ، وجعلهما مما لا يستســيغه العقــل المؤمـــن ، وهكذا انتهت هذه النزعات المتطرفة في هذه القضية (٢)

وظهـــرت بعد ذلك مدرسة الاعتزال الذين قالوا : إن العبد يخلق أفعاله ويخـــترعها ، ومع ذلك فهم لا ينفون العلم الأزلي ، فالله ـــ تعالي ـــ عالم بكـــل مـــا يكون من أفعال خلقه لا تخفي عليه خافيه ، فلم يزل عالماً بمن سيؤمن وبمن سيكفر ، وهذا القول يخرجهم عن دائرة القدرية الخالصة (٣)

ووقـــف المحققون من أهل السنة والجماعة موقفا وسطا فاختاروا الرأي الوســـط ، الـــذي يبتعد عن الإفراط والتفريط ، والذي لا يتنافي مع صحة التكـــليف ومفهـــوم العـــدل والحكمـــة من جهة ، ولا يتنافي مع النصوص الشـــرعية من جهة أخرى فقالوا : إن أفعال العبد الاختيارية مخلوقة لله ـــ

---

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام ١٩٧/١ د/ عبد الحليم محمود ـــ القاهرة ١٩٥٥ .
(٢) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ٢٦٨ .
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

تعـــالي ـــ وليـــس للعبد تأثير في إيجادها ، وأن الله ـــ تعالي ـــ يخلق فيه قدرة علي أضداد ذلك الفعل للعبد (١)

فأفعال العباد مخلوقة لله ـــ تعالي ـــ بالنظر إلي المؤثر الحقيقي ، وهي مـــن جهـــة أخـــرى أفعال العباد بالنظر إلي صور الأسباب الظاهرة ، وقد وجهـــوا إرادتهـــم إلي فعلها باختيارهم الحر ، وبذلك يتم ابتلاؤهم ، وبذلك أيضـــاً يصح في العقل وفي العدل أن يترتب علي أفعالهم المدح والثواب أو الذم والعقاب (٢)

الاحتجاج بالقدر :

الاحـــتجاج بـــالقدر يقصد به:الاعتذار عن الذنب بالقدر ، وذلك لدفع الـــلوم والمؤاخـــذة ، يعـــني:التنصل من المسئولية ، ودفع استحقاق العقاب والـــلوم،والاحـــتجاج بالقضاء والقدر بهذا المعني لا يجوز علي الإطلاق ، وهو باطل عقلا وشرعاً .

وقـــد رد القـــرآن الكـــريم علي أولئك المشركين الذين احتجوا وتعللوا بمشيئة الله ـــ تعالي ـــ في الإشراك ، وفي عبادتهم لغير الله .

قال تعالي : " سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمـــنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجـــة الـــبالغة فـــلو شاء لهداكم أجمعين "(٣) وقال تعالي : " وقال الذين أشـــركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين قبلهم فهل علي الرسل إلا البلاغ المبين (٤)

---

(١) ينظر في ذلك الفرق بين الفرق ص ٢٩٢ . (٣) سورة الأنعام الآية ١٤٩

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٦٣٨ ن ٦٣٩ .(٤)سورة النحل الآية ٣٥

وقـــال ســـبحانه : " وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون " (١)

وواضـــح مـــن الآيـــات الـــثلاثة السابقة أن الله ـــ تعالي ـــ ذم هؤلاء المحـــتجين بالقدر ، ذلك أنهم جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله ، فجعلوا مشيئة الله ـــ تعالي ـــ دليل علي رضاه ، ومن هنا رد الله عليهم هذا الزعم وأنكـــر عليهم هذا الاعتقاد الفاسد ، فلم يذكروا المشيئة علي جهة التوحيد ، وإنمـــا ذكـــروها معارضين بها لأمره ، دافعين بها لشرعه ، كفعل الجهال والـــزنادقة ، إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر ، ويشهد لذلك قوله سبحانه " كذلك كذب الذين من قبلهم " فعلم أن مرادهم التكذيب (٢)

وقـــد ورد أنه أتي سارق إلي سيدنا عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ فقـــال له لم سرقت ؟ قال الرجل : قضي الله علي ، فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطا فقيل له في ذلك ، فقال : القطع للسرقة والجلد للكذب علي الله ، وفـــي روايـــة قال سيدنا عمر ـــ رضي الله عنه ـــ " وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره (٣)

وقـــد ســـئل عبد الله بن عمر ـــ رضي الله عنهما ـــ عن أقوام يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون : كان في علـــم الله ، فقـــال ـــ رضـــي الله عنه : إن علم الله لم يحملهم علي فعلها ، حدثني أبي عمـــر بـــن الخطاب أنه سمع رسول الله ـــ صلي الله عليه وسلم ـــ يَقول : مـــثل عـــلم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أقلتكم فكما لا

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٠ .

(٢) شرح الطحاوية ١١٨/٢ ، ١١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .

تســتطيعون الخروج من السماء والأرض كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض علي الذنوب ، كذلك لا يحملكم علم الله عليها "(١)

إن علم الله نور يكشف وليس قوة تقهر، وليس أيضاً صفة تأثير .

ومــن هــنا فلا يجوز بحال الاحتجاج بالقضاء والقدر قبل الوقوع في المعصــية بحجــة أن الله علم بما سيقع من الإنسان ، كذلك أيضاً لا يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر بعد وقوع الإنسان في المعصية من أجل التخلص من تبعاتها والتهرب من المسئولية ، إذ لو كان الاحتجاج بالقدر مقبولا لقبل مــن إبليس والعصاة ، ولو كان الأمر كذلك لم يعذب الله أحداً من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة .

ولــو كــان الاحــتجاج بــالقدر مقبولا أيضاً لكان حجة للعبد في فعل المحــرمات وترك الواجبات وللزمه أن لا ينكر من يظلمه ويشتمه وينهب مالــه ويفسد حريمه ويضرب عنقه ، ويهلك الحرث والنسل ويسعي فساداً فــي الأرض ، ولــو جــاز الاحــتجاج بالقدر لبطلت الحكمة في العقوبات والحدود ولتعطلت الأوامر والنواهي ، فلا يقطع سارق ولا يقتل قاتل ، ولا يأمــر بمعروف ولا ينهي عن منكر ، وللزم أيضاً عدم التفرقة بين المؤمن والكافر قال تعالي " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار " (٢)

---

(١) فــرق وطــبقات المعتزلة ص ٢٩ للقاضي عبد الجبار نقلاً عن المنهج الجديد ص ١٢٠ .

(٢) سور ص الآية ٢٨ راجع : العقيدة في ضوء القرآن الكريم ص ١٨٠ وما بعدها

الإيمان بالقضاء والقدر والأخذ بالأسباب :

الإيمـــان بالقضـــاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب ، فالحق ـــ سبحانه وتعـــالي ـــ أمر عباده بالسعي في شتي مناحي الحياة ، والأخذ بالأسباب ما استطاعوا إلي ذلك سبيلاً .

قال تعالي : " فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور " (١)

وقال سبحانه : " وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون "(٢)

وقـــال جـــل شأنه : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " (٣)

وأمـــر الله الإنسان أن لا يلقي بنفسه إلي التهلكة فقال سبحانه؛" ولاتلقوا بـــأيديكم إلـــي التهـــلكة " (٤) وقال عز اسمه؛" يآيها الذين آمنوا خـــذوا حذركـــم " (٥) وأمـــره أن يجـــاهد فـــي سبيل الله فقال؛" وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله " (٦)

ومـــن خلال هذه النصوص القرآنية يتضح لنا أن عقيدة القضاء والقدر لا تعارض بينها وبين الأخذ بالأسباب من جهاد وكفاح وسعي ومساهمة في الحياة ، والتخطيط لعمارة الكون وتحقيق السعادة للإنسان .

ولقـــد حـــاول أعـــداء الإسلام ـــ جهلا بحقائقه ـــ أن يجعلوا من عقيدة القدر سبباً للتخلف والجمود والانحلال والضعف الذي تفشي في الأمـــة

---

(١) سورة الملك الآية ١٥ .
(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠ .
(٤) سورة البقرة الآية ٩٥ .
(٥) سورة النساء الآية ٧١ .
(٦) سورة التوبة الآية ٤١ .

الإسـلامية فـي العصـور المـتأخرة ، لا لشـيء إلا الحقد علي الإسلام والكراهية له ، يؤكد هذا قول المستشرق رينان :

" إن الإسـلام لا يشـجع الجهود العلمية ، بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات ، وإيمان تام بالقضاء والقدر " (١)

يقول الشيخ محمد عبده :

" اعـتقد الإفـرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهـب الجبريين ، القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله ، وتوهمـوا أن المسـلمين بعقيـدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهـواء تقلبها الريح كيفما تميل .. ومتي رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهـم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة وقـدرة كاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المـدارك والقوي ، وتتمحي من خواطرهم داعية السعي والكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلي عالم العدم !!

ثم يقول :

" وهكـذا ظـلت طائفـة من الإفرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول في المشرق ، ولست أخشي أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم وبطـل الزاعم ، وافتروا علي الله والمسلمين كذبا : لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني ، وشيعي ، وإسماعيلي ، وزيدي ، ووهابي ، وخارجي ـ يـري مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة .. بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً في أعمالهم ، ويسمي الكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون

---

(١) العقيدة في ضوء القرآن الكريم ص ١٩٧ .

بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية ، والنواحي الربانية الداعية إلي كل خير ، الهادية إلي كل فلاح وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي ، وبه تتم الحكمة والعدل

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمي (الجبرية) وذهبت إلي أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله إضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت أنه لا فرق بيـــن أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بقبقبة البرد عند شدته .... وقد انقرض أرباب هذه المذاهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ...

الاعـــتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقــدام ، وخـــلق الشـــجاعة والبسالة ، ويبعث علي اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الأسود ، وتتشق منها مرارة النمور .

... هــذا الاعـــتقاد يطـــبع الأنفـــس علي الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعـــة الأحوال ، ويحيلها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها إلي الخروج عن كل ما يعز عليها ، بل يحملها علي بذل الأرواح ، والتخلي عن نضرة الحياة .. كل هذا في سبيل الحق ، الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة (١)

إنـــنا نحتاج إلي فهم صحيح لعقيدة القضاء والقدر ، هذا الفهم في غاية الأهميـــة ؛ لأنه يدفعنا إلي السعي في الأرض وبذل أقصي ما نستطيع من جهـــد لـــتحقيق العزة والتمكين والنصر والرقي الفكري والحضاري ، ومن شأن المؤمن أن يتوكل علي الله ــ تعالي ــ في كل شئونه ، وأن يوقن بأن

---

(١) نقلاً عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١١٨ ــ ١٢٢ د/ محمد البهي ط ٩ ــ مكتبة وهبة ١٤٠١ ــ ١٩٨١ م .

مـــا شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .

والتوكل علي الله لا ينافي العمل والسعي ، لأنه يكون مع أخذ الأسباب ، أمـــا تـــرك الأخذ بالأسباب بدعوى التوكل فهو جهل بالشرع وفساد في التفكير [١]

قـــال تعالي " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل علي الله " [٢] فقد قرن أمره تعالي بالتوكل بالأمر بالمشورة .

ومـــن النصوص التي تجمع بين التوكل والعمل قوله تعالي حكاية عن نـــبيه يعقـــوب : " وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب مـــتفرقة ومـــا أغـــني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون " [٣]

وقـــد جـــاء فـــي الحديث الشريف قوله صلي الله عليه وسلم " لو أنكم متوكلون علي الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطاناً " [٤]

إن عقيـــدة القضاء والقدر ليست سبباً في التخاذل والضعف ــ كما يظن بعـــض الجهـــلة ــ بـــل إنها علي العكس من ذلك مصدر القوة والشجاعة والثـــبات في مواجهة الأعداء ، فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عباس ــ رضـــي الله عـــنهما قال : " كنت خلف النبي ــ صلي الله عليه وسلم ــ يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، أحفظ الله تجده

(١) العقيدة في ضوء القرآن الكريم ص ٢٠٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٣) سورة يوسف الآية ٦٧ .

(٤) رواه الترمذي

تجاهك ، إذا سألت فأسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لــو اجتمعت علي أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجــتمعت عــلي أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف "(١)

---

(١) رواه الترمذي : وينظر المرجع السابق ص ٢٠٢ .

ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر

قضية الإيمان بالقضاء والقدر ترتبط ارتباطاً جوهرياً بقضية توحيد الله ــ تعالي ــ كما أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بعلم الله الشامل المحيط ، الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

والإيمان بالقضاء والقدر يبين للإنسان أن كل شيء في هذا الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا ، فإذا مسه الضر لا يجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح لا يفرح ولا يبطر ، وإذا برئ من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرح والبطر عند النجاح كان ــ بلا شك ــ إنساناً سوياً متزناً ، يبلغ منتهى السمو والرفعة في الحياة ، وهذا معني قوله تعالي : " ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك علي الله يسير . لكيلا تأسوا علي ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم الله لا يحب كل مختال فخور " (١)

والإيمان بالقدر يحرر الإنسان من العبودية للعباد ، فلا تنحني جبهته لأية قوة علي ظهر الأرض ، لأنه يعلم ويؤمن أن الأمر بيد خالق السموات والأرض .

كما أن الإيمان بالقدر أيضا ينزع من الإنسان كل مظهر من مظاهر الجبن والخوف ، وهذا الإيمان يدفع صاحبه إلي أن يقول كلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم ، ويندفع أيضاً لجهاد الطغاة والكفار والظلمة ، دون أن يحسب لوسائلهم واساليبهم أي حساب ، ولماذا يجبن أو يخاف وهو يعلم أن المقدور نازل لا محالة ، وغير المقدور لن يحيق به أبداً ؟

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٢ ، ٢٣ .

والإيمـــان بالقدر يحقق للإنسان هدوء الأعصاب وراحة النفس والبدن ، ومفارقـــة الهم والحزن ، فلا يتوتر أعصابه ، ولا تتمزق نفسه ، لأنه آوي إلـــي ركـــن شـــديد وحصـــن حصين ، فلا يأس علي ماض ولا يؤلمه هم المستقبل ، فيكون أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً وأصلحهم بالاً .

وقد شهد بذلك أحد الغربيين ، الذي عاش بين العرب والمسلمين شمال غرب إفريقيا سبعة أعوام ، تعمق خلالها في دراسة الإسلام إنه " ف . ش . بودلـــي " حيث جاء في مقال له بعنوان : " عشت في جنة الله " قال فيه : عشـــت في جنة الله تعلمت من عرب الصحراء التغلب علي القلق ، فهم ــ بوصـــفهم مســـلمين ــ يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الإيمان عـــلي العيـــش في أمان وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً فهم لا يلقون أنفسهم بين بـــراثن الهـــم والقـــلق علي أمر ، إنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون ، وأنه لا يصـــيب الفرد منهم إلا ما كتبه الله له ، وليس معني هذا أنهم يتواكلون ، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي كلا " (١)

(١) الإيمان والحياة ص ١٣٦ ، وينظر في هذا الموضوع العقائد الإسلامية للشيخ سيد ســـابق ص ٩٤ ، إيماننا الحق بين النظر والدليل ص ٢٧٤ ــ ٢٧٨ ، الإيمان د/ محمد نعيم ياسين ص ١٣٦ ــ ١٤٢ .

رؤية الله ـــ تعالي

قال صاحب الجوهرة :

ومنه أن ينظر بالأبصـــار لكن بلا كيف ولا انحصـــــار
للمؤمنين إذ بجائز علقت هذا وللمختار دنياً ثبتـــــت

معني الرؤية :

يقـــول الجـــرجاني : الرؤية هي المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة [١]

وفـــي لســـان العـــرب : رأيت الشيء أبصرته بحاسة البصر ، ورؤية العين معاينتها للشيء [٢]

هـــذا هو المعني اللغوي للرؤية ، أما رؤية الله ـــ تعالي ـــ عند المثبتين لهـــا فقد اختلف فيها فقيل : إنه يحصل للرائي العلم بالله ـــ تعالي ـــ برؤية العيـــن ، وذلـــك كما يحدث في المرئيات ؛ ولكن مع ملاحظة التنزيه عن الكيفيـــة والجهة ، وقيل : إن المراد بها العلم ، وقيل : رؤية المؤمن لله ـــ تعالي ـــ هو نوع من الكشف والعلم إلا أنه أعم وأوضح من العلم .

وهـــذا الـــرأي الأخير هو ما رجحه ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري ، وهو أقرب إلي الصواب [٣] .

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٩٧ ـــ ط مصطفي الحلبي ـــ ١٩٣٨ .

(٢) لسان العرب مادة رأي .

(٣) فـــتح الـــباري بشرح صحيح البخاري للإمام محمد بن حجر العسقلاني ٢٠٤/٢٨ تقديم طه عبد الرؤف سعد ـــ نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٠ م .

رأي متكلمي الإسلام في موضوع الرؤية :

بدايـــة نود أن نشير إلي أنه قد أجمع المسلمون علي أن المعني الحسي لـــلرؤية محـــال علي الله ــ تعالي ــ يقول الشهرستاني : " لم يصر صائر مـــن أهـــل القبلة إلي تجويز اتصال أشعة من البصر بذاته ــ تعالي ــ أو انطـــباع شـــبح يتمثل في الحاسة منه أو انفصال شيء من الرائي والمرئي بهمـــا ، لكـــن أهل الأصول اختلفوا في أن الرؤية إدراك وراء العلم أم علم مخصوص " (١)

هذا وقد ذهب الأشاعرة والماتريدية إلي جواز رؤيته ــ تعالي ــ وهذه الـــرؤية ــ عـــندهم ــ منزهة عن المكان والجهة والمقابلة وغير ذلك من أمـــارات الحـــدوث ، إذ ما يجوز للأجسام يستحيل علي الباري ــ سبحانه وتعالي " (٢)

أمـــا المعـــتزلة فقد ذهبوا إلي إنكار رؤيته تعالي في الآخرة ، واستدلوا عـــلي ذلك بآيات قرآنية أولوها تأويلا يتفق مع ما ذهبوا إليه ، ثم إن الرؤية عـــندهم لا تتعلق إلا بالجسم ، فلابد لها من مقابلة الرائي والمرئي ، وثبوت مسافة بينهما ، واتصال شعاع بين الرائي والمرئي ، وهذا مستحيل في حق الله ــ تعـــالي ــ كمـــا ذهـــب أيضاً إلي استحالة الرؤية كل من الخوارج والبخارية والزيدية من الشيعة والإمامية والإباضية (٣)

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ، صححه الفرد جيوم ــ نشر مكتبة زهران ــ مصر .

(٢) انظـــر : الـــلمع للأشعري ص ٦١ ــ ٦٨ ، التوحيد للماتريدي ص ٥٨ ــ ٨٨ ، أصول الدين للبغدادي ص ٩٧ ــ ١٠٢ ، الإرشاد للجويني ص ١٦٦ ــ ١٧٦ .

(٣) انظر رأي المعتزلة في الجزء الرابع للقاضي عبد الجبار المعتزله ، والذي خصصه لهـــذا الموضوع ، ويراجع رأي الخوارج في مقالات الإسلاميين للأشعري ١/١٨٩ ورأي النجارية

أدلة المثبتين :

استدل الأشاعرة والماتريدية علي جواز رؤية الله ـــ تعالي ـــ في الأخرة بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة منها :

١ ـــ قوله تعالي " وجوه يومئذ ناضرة إلي ربها ناظرة "(١) فقد أضيف النظر إلي الوجه ، الذي هو محله ، كما أن التعدية بأداة إلي الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل علي خلافه حقيقة صريحة في أن الله ـــ تعالي ـــ أراد بذلك نظر العين التي هي في الوجه إلي الرب جل جلاله (٢)

٢ ـــ قوله تعالي " للذين أحسنوا الحسنى وزياده " (٣) والحسنى : الجنة ، والزيادة : الرؤية كما ثبت بالحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم (٤)

٣ ـــ قوله تعالي : " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " (٥) ووجه الاستدلال بالآية : أن الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، ويكون بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً كمدحه بنفي السّنة والنوم المتضمنين كمال القيومية ، وبنفي الموت ، الذي يتضمن كمال الحياة ، فالآية تدل

في الفرق بين الفرق ص ٢٠٧ ، والزيدية في نفس المرجع أيضا ص ٢٩ ـــ ٣٨ ، والشيعة الإمامية في كتاب عقائد الإمامية للمظفر ص ٣٦ .

(١) سورة القيامة الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ضوء الساري إلي معرفة رؤية الباري لشهاب الدين الشافعي ص ٣٠ ـــ ٦٤ .

(٣) سورة يونس الآية ٢٦ .

(٤) شرح الطحاوية ص ١٩٧ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

علي كمال عظمته سبحانه ، وأنه أكبر من كل شيء ، وأنه يري ، ولكـــن تعاليه عن التناهي والاتصاف بالحدود والجوانب ، لا يدرك بالأبصـــار ، ولا يحاط به ، كما قال ـــ جل شأنه " ولا يحيطون به علماً " (١)

٤ ـــ قوله تعالي رداً علي سيدنا موسى : " لن تراني " (٢)

والاستدلال بها من وجوه :

أنه لا يظن بكليم الله موسى ـــ عليه السلام ـــ أن يسأل ما لا يجوز عليه ؛ بل هو من أعظم المحال ، إذ لا يجوز علي أحد من الأنبياء الجهـــل بشيء من أحكام الألوهية فكيف يجوز للمعتزلي الذي ينكر الرؤية أن يكون أعلم من موسى ـــ عليه السلام ـــ فيما يجب لله ـــ تعـــالي ـــ ويســـتحيل عليه ؟ مع أن المقصود من بعثة الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ الدعوة إلي العقائد الحقة والأعمال الصالحة (٣)

٥ ـــ جـــاء فـــي الحديث عن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ أن الناس قـــالوا يـــا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم ـــ : هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يـــا رســـول الله قال : فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : فإنكم ترونه كذلك (٤)

---

(١) ســـورة طـــه الآية ١١٠ ، انظر : حادي الأرواح إلي بلاد الأفراح لابن القيم ص ٢٢٨ ط ٤ صبيح ـــ مصر .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

(٣) أصول الدين الإسلامي ص ١٥٤ .

(٤) متفق عليه

٦ — روى عن صهيب أنه قال : قرأ رسول الله — صلي الله عليه وسلم — هـذه الآيـة " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " (١) قال : إذا دخل أهـل الجـنة الجنة وأهل النار النار ، نادي مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً ، يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يـثقل موازينـنا ، ويـبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار؟ قال فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهي الزيادة (٢)

هـذا وقـد أجمـع الصحابة والتابعون علي رؤية الله — تعالي — في الآخـرة ، وكـانوا يبتهـلون إلي الله — سبحانه — في طلب لذة النظر إلي وجهـه الكـريم ، كان ذلك بقرائن من أحوال رسول الله — صلي الله عليه وسـلم — قـال مالك — رضي الله عنه : لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلى لأوليائـه حـتى رأوه ، ولـو لم يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة ، لم يعبر الكافرون بالحجاب ، قال تعالي : " كلا إنهم عند ربهم يومئذ لمحجوبون "(٣)

قـال الإمـام الشافعي : لما حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل علي أن أولياءه يرونه في الرضا " (٤)

أما الدليل العقلي علي جواز الرؤية فكالتالي :

أ — الله — تعالي — موجود ، وكل موجود يصح أن يري ، فالباري — عز وجل يصح أن يري (٥)

---

(١) سورة يونس الآية ٢٦ .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) سورة المطففين الآية ١٥ .

(٤) شرح البيجوري علي الجوهرة ص ١٣٠ .

(٥) المرجع السابق ص ١٢٩ .

ب ـــ كمـــا جاز أن يعلم الباري ـــ عز وجل ـــ من غير كيفية وصورة ، جاز أن يري من غير كيفية [١]

أدلة النافين للرؤية ومناقشتها :

مـــن أبـــرز الفـــرق التي تقول باستحالة رؤية الباري ـــ تعالي ـــ هم المعتزلة ، ولهم علي ذلك أدلة نقلية وعقلية :

أولاً : الأدلة النقلية ومنها :

١ ـــ قولـــه ســـبحانه : " لا تدركـــه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير [٢]

ويـــري المعـــتزلة أن الإدراك في الآية هو نفس الرؤية ، ونفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية .

ويـــبين القاضي عبد الجبار أن وجه الدلالة في الآية علي نفي الرؤية أنه تعـــالي نفي عن نفسه إدراك البصر ، وهذا تمدح راجع إلي ذاته ، وما كان نفيـــه تمدحـــاً راجعاً إلي ذاته كان إثباته نقصاً ، والنقص لا يجوز في حقه تعالي بأي حال من الأحوال [٣]

وإذا ســـأل ســـائل لم قلتم يا معشر المعتزلة أن هذه الآية وردت مورد الـــتمدح ؟ يجيب القاضي قائلاً : " ... لأن السياق يقتضي ذلك ، وكذلك ما قبـــلها ومـــا بعدها ، لأن جميعه في مدائح الله ـــ تعالي ـــ وغير جائز من الحكيـــم أن يـــأتي بجملة مشتملة علي المدح ، ثم يخلطها بما ليس بمـــدح البتة(٤)

---

(١) المسامرة ص ٤٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٢٢٣ تحقيق د. عبد الكريم عثمان ط ١ مكتبة وهبة ١٣٨٤ ـــ ١٩٦٥ م . (٤) المرجع السابق ص ٢٣٦ .

لكن أهل السنة يرون أن الآية السابقة ليست دليلاً علي نفي الرؤية ؛ بل هي دليل علي جوازها ؛ لأن النفي هنا هو نفي الإحاطة ، تلك التي تقتضي الوقــوف علي الجوانب والحدود ، وكأن معني الآية حينئذ أنه وإن جاز أن يــري ؛ إلا أن الأبصـــار لا تدركه ولا تحيط به ، وإذن فالآية حجة علي المعتزلة لا لهم .

٢ ـــ إن الله ســبحانه استنكر سؤال الرؤية ، وسماه ظلماً وعتواً ، ورتب عــليه الأخذ بالصاعقة ، يقول تعالي : " يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كــتاباً مــن الســماء فقــد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم " (١)

والشــاهد في الآية : أن قوم موسى حينما طلبوا رؤية الله ـــ تعالي ـــ وصفهم سبحانه بالظلم وتوعدهم بالأخذ بالصاعقة .

ويقــول تعالي : " وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نري الله جهرة فــأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون " (٢) فحينما علقوا إيمانهم علي رؤية الله كان جزاؤهم الأخذ بالصاعقة .

ويقول سبحانه : " وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نري ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً " (٣)

وإذا كــان طلب الرؤية قد ترتب عليه الوصف بالاستكبار والظلم يكون الطلب غير جائز ، وتكون الرؤية إذن مستحيلة .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ٥٥ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٢١ .

وقـــد رد عـــليهم أهـــل الســـنة بأن الاستنكار والوصف بالظلم والأخذ بالصـــاعقة لـــم يكـــن لطلبهم الرؤية ، التي هي نوع من الانكشاف ؛ الذي يمـــنحه الله لمـــن يشاء ، وإنما كان طلبهم الرؤية تعنتاً واستكباراً ، وعلي الوجـــه الـــذي يرون به الأشياء المجسمة المحدودة في الدنيا والمحصورة بالمكـــان ، فهـــم لا يعرفون للرؤية إلا المعني المعهود من المقابلة ووجود المرئي في مكان واتصال الشعاع ...

والـــذي يؤكد استكبارهم وظلمهم أنهم رأوا آيات كثيرة لنبي الله موسى عليه السلام ـــ ولم يؤمنوا به .

وعـــليه فـــإن الاســـتعظام لأجل طلبهم الرؤية تعنتاً وعناداً لأنهم طلبوا الـــرؤية فـــي الدنيا قبل أن يخلق الله ـــ تعالي ـــ في أبصارهم ما تقوى به علي رؤيته تعالي ، فإن الاستعظام وترتب الوعيد والذم علي ذلك ، لا علي طلب الرؤية (١)

ثانيا : الأدلة العقلية :

مـــن أشهر الأدلة العقلية لدي المعتزلة : أنه تعالي لو كان مرئياً ، لكان مقابلاً للرائي بالضرورة ، فيكون في جهة وحيز .

ورد أهـــل السنة بأن لزوم الجهة والحيز ممنوع ، إذ الرؤية نوع كشف وعـــلم للمدرك ، وكقوة يجعلها الله في الرائي ، من غير أن ينقص منه قدر من الإدراك ، ولا يشترط فيها مقابلة المرئي بجهة أو في جهة معها مسافة ، ومن غير إحاطه بمجموع المرئي (٢).

---

(١) شـــرح مطالع الأنظار للأصبهاني نقلا عن نظرات في العقيدة الإسلامية ص ١١٧ د/ محمد الأنور حامد عيسي .

(٢) المســـامرة بشرح المسايرة لابن أبي الشريف الرضي ص ٤١، ٤٣، وانظر شرح البيجوري علي الجوهرة ص ١٣٠ ، ١٣١ .

وبعــد : فــإن ــ بحث رؤية الله ــ تعالي ــ من المباحث التي شغلت مفكــري الإســلام حقبة من الزمن ، وكان للمعتزلة الباع الطويل في هذه القضــية ، ونحن نقدر الظروف التي دفعتهم إلي ذلك ، ومن الانصاف أن نقــول : إن المعــتزلة في نفيهم للرؤية كانوا ــ بلا شك ــ حريصين علي تــنزيه الله ــ تعالي ــ تنزيها مطلقاً ، هذا بالإضافة إلي أن البيئة الإسلامية فــي هذا الوقت كانت مفعمة بالتشبيه والتجسيم ، والحق سبحانه وتعالي ــ مــنزه عن ذلك ، إلا أن ما يؤخذ علي المعتزلة أنهم بالغوا في نفي الرؤية مبالغة شديدة لدرجة أن هذا التعصب جعلهم يكفرون من يقول بجواز رؤيته تعــالي ، ولــم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن أحدهم قال : إن من ذهب إلي أن الله ــ تعالي ــ يري بالأبصار بلا كيف فهو كافر (١)

ولا نــدري مــاذا كــان يضير المعتزلة لو أنهم تشددوا في قولهم كما يشاؤون ؟ إلا أنه ما كان لهم أن يجمعوا في النفي للرؤية بين الحايتين ؟

كمــا أنه من الانصاف أيضاً أن نقول : إن أهل السنة في بحثهم لكيفية الــرؤية وطبيعــتها كان لديهم العذر ، لأنهم اضطروا اضطراراً للرد علي القائلين بنفي الرؤية مطلقاً ، الذين تمسكوا بالقواعد العقلية الصرفة ، والتي لا تتسق مع الكتاب والسنة .

والحقيقة أن مذهب السلف في هذه القضية الشائكة هو الأولي بالقبول ، وذلــك بأن نؤمن بالرؤية في دار القرار للمؤمنين في إطار أن الله ــ تعالي ــ ليــس كمــثله شيء ، ولا علينا بعد ذلك أن نبحث في طبيعة الرؤية أو كيفيتها .

---

(١) الانتصار في الرد علي ابن الرواندي الملحد ص ٦٧ ، ٦٨ لأبي الحسين الخياط ــ تحقيق نيبرج ــ دار الكتب المصرية ، وينظر : المعتزلة واتجاههم الفكري ص ٢١١ .

إن أفهــام الــناس وعقولهــم ــ مهما بلغت في حدة الذكاء والفهم فهي محــدودة ، ولا يمكــن أن تقدم رأياً قاطعاً في موضوع كهذا الموضوع ، الــذي يتعــلق ــ أساســاً ــ بحقيقــة الذات الإلهية ، لذا نجد أن الإمام أبا منصور الماتريدي قد نهج منهج السلف ــ رضي الله عنهم ــ حين قرر أن الــرؤية لا تكون إلا بالسمع ، وذلك أنها من أحوال يوم القيامة التي اختص الله ــ تعالي ــ بعلمها ، فلا نعلم عنها إلا العبارات دون الكيف (١)

نعــم : ان المعــتمد فــي إثبات رؤية الباري ــ سبحانه ــ هو الدليل الســمعي من الكتاب والسنة ؛ لأن الذين اعتمدوا علي العقل من المنكرين للرؤية لجأوا إلي تأويل النصوص الواردة في إثباتها تأويلاً يبدو فيه التعنت والتكــلف بصــورة واضحة ، والذين أوردوا الدليل العقلي للأشعري علي صحة الرؤية قد قرنوا هذا الدليل بالشبه والاعتراضات ، وهذه الشبه أوهت بــنيان الدليل مما جعل أصحابه أنفسهم يعلنون عدم اطمئنانهم إليه وتمسكهم بالدليل السمعي (٢)

وفــي الــنهاية يمكننا القول بأن الاختلاف في أمر الرؤية ليس بالأمر الخطيــر الذي يؤدي إلي تمزيق الصفوف طالما أن المثبتين والنافين ينزهو الله تعالي ــ عن التشبيه والتجسيم ــ تعالي الله عن ذلك .

فالفــريق الــذي ينكر الرؤية يريد بإنكارها تنزيه الله تعالي عن الجهة والتجسيم .

---

(١) الــتوحيد للإمام أبي منصور الماتريدي ص ٧٧ ــ ٨٥ ــ تحقيق د/ فتح الله خليف ــ دار المشرق ــ بيروت ــ ١٩٧٠ .

(٢) العقيدة في ضوء القرآن ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .

والفـــريق الـــذي يثـــبت الرؤية يري أن النصوص صريحة في إثباتها فأثبـــتها ، لكـــنه ينزه الله ـــ تعالي ـــ عن الجهة والتجسيم أيضا ، ومن هنا قـــال : يـــرى مـــن غير كيفية ولا إحاطة ، ثم إن الرؤية تكون في الأخرة وأحوال الدنيا وقوانينها مختلفة عن أحوال الدنيا [١]

هـــذا وقد اختلف السلف ـــ رضوان الله عليهم ـــ في وقوع الرؤية في الدنيـــا للنـــبي ـــ صـــلي الله عليه وسلم ـــ فذهب الأكثرون ومنهم صاحب الجوهـــرة ـــ إلي أنها وقعت في الدنيا للنبي ـــ صلي الله عليه وسلم ـــ ليلة الإســـراء ، وقـــد اســـتدلوا علي ذلك بما رواه البخاري عن ابن عباس ـــ رضـــي الله عنهما ـــ بعيني رأسه ، وأيضا قول الإمام أحمد بن حنبل : أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه رآه .

وقـــد أنكر جمع من السلف رؤيته ـــ صلي الله عليه وسلم ـــ لربه وفي مقدمـــتهم الســـيدة عائشـــة ـــ رضـــي الله عنها ـــ فقد روي البخاري في صـــحيحه عـــن مسروق قال : " قلت لعائشة ـــ رضي الله عنها ـــ يا أمتاه هل رأي رسول الله ـــ صلي الله عليه وسلم ـــ ربه ؟

فقـــالت : لقد قف شعرى مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب مـــن حدثـــك أن محمد ـــ صلي الله عليه وسلم ـــ رأي ربه فقد كذب ، ثم قـــرأت " لا تدركـــه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ..." ولكنه رأي جبريل عليه السلام ـــ في صورته مرتين " [٢]

---

(١) أصول الدين الإسلامي ص ١٥٩ .

(٢) البخاري (تفسير سورة النجم)

وقــد روي مسلم في صحيحه عن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ قال : ســـالت رسول الله ــ صلي الله عليه وسلم ــ هل رأيت ربك فقال : " نور أني أراه "(١)

والأفضـــل في هذا الموضوع هو التمسك بالنصوص الواردة ، إذ ليس هــناك دليـــل قاطع يثبت رؤيته ــ صلي الله عليه وسلم ــ لربه في الدنيا ، والمعــول فيــه علي آيتي النجم ، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن (٢)

---

(١) صحيح مسلم

(٢) شرح الطحاوية ٢٠٨/١ ، ٢٠٩ .س

أهم المراجع

١ ــ القرآن الكريم

٢ ــ الأسماء والصفات للإمام البيهقي ــ ط دار الكتب العلمية .

٣ ــ الاقتصاد في الاعتقاد للإمام أبي حامد الغزالي تحقيق مصطفي أبو العلا ــ مكتبة الجندي ــ مصر .

٤ ــ الإيمان والحياة د/ يوسف القرضاوي ــ مكتبة وهبة ــ مصر ــ ١٤١٠ هـ ــ ١٩٩٠ م

٥ ــ اتحاف المريد بجوهرة التوحيد تحقيق د/ محمود عبد الحكيم عثمان ط القاهرة ــ ١٩٧٩ م .

٦ ــ إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ــ ط الحلبي ــ مصر .

٧ ــ أسباب النزول للواحدي ــ مكتبة المتنبي ــ القاهرة .

٨ ــ إسلام بلا مذاهب د/ مصطفي الشكعة ــ الدار المصرية اللبنانية ط ١٠ ــ ١٩٩٤ م

٩ ــ أساس التقديس في علم الكلام للإمام فخر الدين الرازي ط القاهرة ــ ١٩٣٥ م .

١٠ ــ أصول الدين الإسلامي د/ قحطان الدوري ، د/ رشدي عليان ــ دار الفكر ــ الأردن ــ ط ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م .

١١ ــ الجام العوام عن علم الكلام للإمام أبي حامد الغزالي المطبعة المحمودية التجارية ــ القاهرة ١٣٥٠ هـ ــ ١٩٣٢ م .

١٢ ــ بحوث في الإلهيات من كتاب المواقف ــ د/ محمد عمر محمد حسن ــ ط ١ دار الطباعة المحمدية ١٤١٧ هـ ــ ١٩٩٦م .

١٣ ــ إيضاح الدليل في قطع حجج التعطيل ، محمد إبراهيم بن سعد بن جماعة تحقيق الشيخ وهبي سليمان الألباني ــ دار التأليف ١٩٩٠م

١٤ ــ البداية والنهاية لابن كثير ــ تحقيق علي نجيب عطوي وآخرين ط ٣ ــ بيروت ــ ١٩٨٧م .

١٥ ــ التوضـــيح المفيد علي شرح عبد السلام علي جوهرة التوحيد للشيخ صالح شرف والشيخ عبد الحميد شقير .

١٦ ــ توضيحات في العقائد د/ محمد شمس الدين إبراهيم سالم .

١٧ ــ التفكير الفلسفي في الإسلام د/ عبد الحليم محمود ــ القاهرة ١٩٥٥

١٨ ــ التوحيد لأبي منصور الماتريدي ــ تحقيق د/ فتح الله خليف ــ دار المشرق ــ بيروت ١٩٧٠م .

١٩ ــ الـتعريفات للشـريف الجـرجاني ــ ط مصطفي الحلبي ــ مصر ١٩٣٨م .

٢٠ ــ حادي الأرواح إلي بلاد الأفراح ط ٤ ــ صبيح ــ مصر ، الخطط للمقريزي ــ القاهرة ــ ١٣٤٢ هــ .

٢١ ــ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية د/ عرفان عبد الحميد ــ ط٢ دار البشير ــ الأردن ــ ١٤١٧ هــ ــ ١٩٩٧م .

٢٢ ــ سـر تأخـر العرب والمسلمين للشيخ محمد الغزالي ط دار الريان للتراث ــ ١٤٠٧ هــ ــ ١٩٨٧ م .

٢٣ ــ السلفية رحلة زمنية مباركة د/ محمد سعيد رمضان البوطي ط دار الفكر ــ دمشق ــ ١٩٨٨م .

٢٤ ــ شـرح الطحاويـة لابـن أبي العز الحنفي تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ــ مكتبة المعارف ــ الرياض ١٤٠٢ هــ ــ ١٩٨٢م .

٢٥ ــ ضحي الإسلام للأستاذ أحمد أمين ــ ط ٩ النهضة المصرية .

٢٦ ـ العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ـ الفتح للإعلام العربي ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م .

٢٧ ـ العقيدة والأخلاق د/ عبد الرحمن بيصار ط ٢ ١٩٧٠ ـ مصر .

٢٨ ـ عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ط عيسي الحلبي ـ مصر .

٢٩ ـ العقيـدة الإسلامية وأسسها للأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني ـ دار القلم ـ دمشق .

٣٠ ـ العقيـدة فـي ضـوء القرآن الكريم د/ صلاح عبد العليم ـ مكتبة الأزهر ١٩٨٢ م .

٣١ ـ عقيدتنا د/ محمد ربيع الجوهري ـ ط ٤ ١٤١٨ ـ ١٩٩٨ م

٣٢ ـ علـم الكلام الإسلامي في مواجهه التحديات د/ إبراهيم عبد الشافي إبراهيم ـ دار الهدي للطباعة ـ مصر ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م .

٣٣ ـ فـتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تقديم طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ ١٩٨٠ م .

٣٤ ـ في نور العقيدة الإسلامية د/ محمد سيد أحمد المسير ، دار الطباعة المحمدية ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

٣٥ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، المطبعة الأدبية ـ القاهرة ١٣١٧ م

٣٦ ـ قضـايا عقدية د/ محمد الأنور حامد عيسي ـ دار الصفا للطباعة ـ مصر ـ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م .

٣٧ ـ كـبرى اليقينات الكونية د/ محمد سعيد رمضان البوطي دار الفكر ـ دمشق ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٩ م .

٣٨ ـ معارج السالكين لابن القيم ـ دار الحديث ـ مصر .

٣٩ــ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد الغزالي ــ مكتبة الجندي ــ مصر .

٤٠ ــ المعتزلة واتجاههم العقلي واثره في تطور الفكر الإسلامي ، رسالة دكتوراه مخطوطة مقدمة إلي قسم العقيدة في كلية أصول الدين بالقاهرة ١٩٨٤م د/ نشأت عبد الجواد ضيف .

٤١ ــ المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد ، د/ نشأت عبد الجواد ضيف ــ ط دار الطباعة المحمدية ــ ١٤١٧ هـ ــ ١٩٩٧م .

٤٢ ــ مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعرى تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ ط النهضة المصرية ــ ١٩٦٩ م .

٤٣ ــ المسايرة للكمال ابن الهمام ــ مطبعة السعادة ــ مصر .

٤٤ ــ هوامش علي العقيدة النظامية للجويني د/ محمد عبد الفضيل القوصي ــ ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٤م .

الفهرس